فإنّ ممّا يخرج عن سلسلة المعاني المترابطة الّتي نحن بصددها إفادة الطّائر معنى الدّماغ. ويبدو ، والله تعالى أعلم ، أنّ الدّماغ الّذى أطلق عليه لصغره لفظة الفرخ الّتى تُستَعْمَل فى كلّ صغير من الحيوان والنّبات الشّجر وغيرها قد مهّدت لإطلاق لفظة العصفور على الدّماغ ، رغم أنّ العصفور أكبر من الفرخ ، ولإطلاق لفظة الطّائر ، رغم أنّ الطّائر أكبر من العصفور . ويبدو أنّ التّلاحم بين الفرخ والعصفور والطّائر هو الّذى مكّن من استعمال هذه الألفاظ فى الدّلالة على الدّماغ بجامع صفة الصّغر فى الجميع .

وبعد هذه الجولة الواسعة والرّحلة الطّويلة مع الطّيرة أو التّطيّر ومع لفظة الطّائر يبدو أنّنا بحاجة إلى ذكر الآيات الكريمات من سور الأعراف ويس والنّمل من أجل معرفة المعنى الّذى يريده رسل الله تعالى ردّ فعلٍ لتشاؤم أقوامهم منهم لوجودهم بين ظهرانَيْهم .

جاء فى سورة الأعراف القول : ﴿ فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيّئةٌ يطّيّروا بموسى ومن معه . ألا إنّما طائرهم عند الله ولكنّ أكثرهم لا يعلمون﴾ والمعنى أنّ فرعون وملأه وقومه القبط إذا جاءتهم الحسنة والخير قالوا لنا هذه ونحن أهلٌ لها ونستحقّها ، وإن تصبهم سيّئةٌ ولا يخطئهم شرّ يطّيّروا بموسى ومن معه . ويتناسى القوم أنّ موسى عليه السّلام ومن معه هم جميعًا بين ظهرانيهم فى حال اليُسْر والعُسْر فلماذا ينسون موسى عليه السّلام ومن معه فى حال اليسر ويذكرونهم فى حال العسر ! إنّ الآية الكريمة تردّ على القوم فورًا وذلك بلفت انتباه القوم إلى أنّ طائرهم وشؤمهم عند الله تعالى ومِنْ قِبَلِهِ جلّ وعلا : ﴿ ولكنّ أكثرهم لا يعلمون ﴾ ذلك بل يجهلونه . وإذا كان القول : ﴿ يطّيّروا ﴾ بمعنى : « يتشاءموا » وكان الطّائر فى القول : ﴿ طائرهم ﴾ بمعنى شؤمهم فإنّ استعمال القول : ﴿ طائرهم ﴾ هو من باب مراعاة النّظير أو المشاكلة اللّفظيّة مع إفادة معنًى جديدٍ غير قديم ، وبعيدٍ غير قريب وذلك ما سوف نقف عنده لاحقًا بإذن الله تعالى بعد

الحديث عن آيات سورتي يس والنّمل .

جاء في سورة يس قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿ قالوا إنّا تطيّرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنّكم وليمسّنّكم منّا عذابٌ أليم . قالوا طائركم معكم أئن ذُكّرْتُمْ بل أنتم قومٌ مسرفون ﴾ والمعنى أنّ أصحاب القرية يقولون لرسل الله تعالى الثّلاثة الّذين أرسلهم الله تعالى إلى أصحاب القرية والّذين جاءت الإشارة إليهم في هذه الآية الكريمة من سورة يس[1] قال تعالى : ﴿ إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذّبوهما فعزّزنا بثالثٍ فقالوا إنّا إليكم مرسلون ﴾ والّذين أرسلهم الله تعالى إلى تلك القرية قبل المسيح عليه السّلام وفق رأي ابن تيمية رحمه الله تعالى رحمةً واسعة[2] المعنى أنّ أصحاب القرية قالوا لرسل الله تعالى الثّلاثة إنّا تطيّرنا بكم وتشاءمنا بوجودكم بين ظهرانينا فبسببكم أصابتنا السّيّئة وأخطأتنا الحسنة . ويستمرّ أصحاب القرية قائلين للرّسل : لئن لم تنتهوا عن الدّعوة إلى التّوحيد والنّهي عن الشّرك لنرجمنّكم بالحجارة وليمسّنّكم منّا عذابٌ أليم وأذًى شديد .

ومن البيّن أنّ معنى القول على لسان المشركين في سورة الأعراف وفي سورة يس واحد . إنّ المشركين يتشاءمون برسل الله تعالى وبالمؤمنين بهم من أتباعهم .

فإذا تحوّلنا إلى الآية الكريمة الأخرى في سورة يس تبيّنّا أنّ رسل الله تعالى الثلاثة هم الّذين يجيء على لسانهم القول : ﴿ طائركم معكم ﴾ قال تعالى : ﴿ قالوا طائركم معكم أئن ذُكّرتم بل أنتم قومٌ مسرفون ﴾ والمعنى : شؤمكم معكم بكفركم. وفي أسلوب الاستفهام ينكر المرسلون على أصحاب القرية تطيّرهم وكفرهم قائلين : أتطيّرتم لأنْ ذُكّرْتُم[3] بالله تعالى ربّكم ! بل أنتم قومٌ متجاوزون كلّ الحدود . وبما أنّ القول في آية سورة الأعراف : ﴿ ألا إنّما طائرهم عند الله ﴾

---

(١) الآية ١٤ .

(٢) انظر الجواب الصّحيح لمن بدّل دين المسيح ١ / ٢٠٩ و٢٨٥ و٢٨٨ .

(٣) الكشاف ٢ / ٥٨٤ وانظر تأمّلات في سورة يس قلب القرآن ٣٦ الطّبعة الحادية عشرة .

ليس على لسان موسى عليه السّلام فى حين جاء القول فى آية سورة يس : ﴿ طائركم معكم ﴾ على ألسنة رسل الله تعالى فذلك معناه أنّ ما سمّيناه بمراعاة النّظير بشأن آية سورة الأعراف قد تأكّد هنا وأنّنا بحاجةٍ إلى أن نقف على ما يريده رسل الله تعالى من هذه المراعاة للنّظير أو المشاكلة وذلك بعد الوقوف عند الآية الكريمة من سورة النّمل المتعلّقة بصالح عليه السّلام الّذى أرسله الله تعالى إلى ثمود . قال الله تعالى[1] : ﴿ قالوا اطّيّرنا بك وبمن معك . قال طائركم عند الله بل أنتم قومٌ تُفْتَنون ﴾ والمعنى أنّ ثمود قالوا لصالحٍ عليه السّلام اطّيرنا بك وتشاءمنا بك وبمن معك . قال صالحٌ عليه السّلام لقومه إنّ شؤمكم عند الله تعالى أتاكم به بسبب كفركم بل أنتم قومٌ تُفْتَنون وتُخْتَبرون وتُمْتَحنون بالخير والشّرّ . والفتنة : الامتحان والاختبار[2] .

ومن البيّن وجه الشّبه الكبير بين القول على ألسنة الرّسل الثّلاثة فى سورة يس : ﴿ قالوا طائركم معكم أئن ذكّرتم بل أنتم قومٌ مسرفون ﴾ والقول على لسان صالحٍ عليه السّلام فى سورة النّمل : ﴿ قال طائركم عند الله بل أنتم قومٌ تفتنون ﴾ على الرّغم من كون الرّسل الثّلاثة ينظرون إلى السّيّئة من زاوية إصابتها القوم : ﴿ قالوا طائركم معكم ﴾ فى حين ينظر صالحٌ عليه السّلام إلى السّيّئة من زاوية المصدر : ﴿ قال طائركم عند الله ﴾ وفى كلا الموضعين تفيد لفظة الطائر معنًى واحدًا فما هذا المعنى الواحد فى هذين الموضعين الاثنين بل وفى الموضع الثّالث كذلك من سورة الأعراف ؟

حينما نضع معًا الأقوال الثّلاثة فى السّور الكريمات الثّلاث نلاحظ أمرين مهمّين. الأمر الأوّل مجيء لفظة الطّائر فى المواضع الثّلاثة ، والأمر الآخر وجه الشّبه الكبير بين القول فى آية سورة الأعراف وسورة النّمل لمجيء الظّرف ﴿ عند ﴾ ولفظ

---

(١) سورة النّمل ٤٧ .

(٢) الجواب الصّحيح لمن بدّل دين المسيح ١ / ١٤ .

الجلالة : ﴿ الله ﴾ ممّا يعنى أنّ جوهر الأقوال الثّلاثة واحد .

جاء فى سورة الأعراف القول : ﴿ ألا إنّما طائرهم عند الله ﴾ .

وجاء فى سورة يس القول : ﴿ قالوا طائركم معكم ﴾ .

وجاء فى سورة النّمل القول : ﴿ قال طائركم عند الله ﴾ .

ومن البيّن أنّ استعمال لفظة الطّائر فى المواضع الثّلاثة ردّ فعلٍ لتطيّر الكافرين فى آية سورة الأعراف وتشاؤمهم من موسى عليه السّلام ، وردّ فعلٍ لاستعمال الكافرين جملة : ﴿ تطيّرنا بكم ﴾ فى آية سورة يس ، وجملة : ﴿ اطّيّرنا بكم ﴾ فى آية سورة النّمل . وبذلك يكون استعمال لفظة طائر بمعنى الشّؤم من باب المشاكلة ومراعاة النّظير والازدواج[1] وما دام استعمال لفظة الطّائر فى المواضع الثّلاثة من باب المشاكلة ومراعاة النّظير والازدواج فإنّ هذه مناسبةٌ طيّبةٌ للإشارة إلى الدّراسة المستفيضة فى أثناء دراستنا للآية الكريمة الخامسة عشرة من سورة البقرة بعنوان : تأمّلات فى سورة البقرة[2] جاء فى الآيتين الكريمتين الرّابعة عشرة والخامسة عشرة من سورة البقرة قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿ وإذا لقوا الّذين آمنوا قالوا آمنّا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنّا معكم إنّما نحن مستهزئون . الله يستهزئ بهم ويمدّهم فى طغيانهم يعمهون ﴾ إنّ الازدواج بين القول على لسان المنافقين إلى إخوانهم من شياطين الإنس : ﴿ إنّا معكم إنّما نحن مستهزئون ﴾ وبين القول : ﴿ الله يستهزئ بهم ﴾ يقول القرطبيّ[3] مثلاً فى تفسير قوله تعالى : ﴿ الله يستهزئ بهم ﴾ : « أي ينتقم منهم ويعاقبهم ويسخر بهم ويجازيهم على استهزائهم، فسمّى العقوبة باسم الذّنب . هذا قول الجمهور من العلماء . والعرب تستعمل ذلك كثيرًا فى كلامهم ، من ذلك قول عمرو بن كلثوم :

ألا لا يجهلنْ أحدٌ علينا ... فنجهل فوق جهل الجاهلينا

---

(١) انظر مثلاً النُّكت فى إعجاز القرآن للرّمّانى باب التّجانس ٩١ وانظر التّجانس فى الملحق رقم ٨ ص ١٧٦ وانظر إعجاز القرآن للباقلاّنى ٢٧١ و٢٧٢ .

(٢) ١ / ١٠٣ - ١١٠ .

(٣) تفسير القرطبيّ ١٨٠ .

فسمّى انتصاره جهلاً ، والجهل لا يفتخر به ذو عقل ، وإنّما قاله ليزدوج الكلام فيكون ذلك أخفّ على اللّسان من المخالفة بينهما . وكانت العرب إذا وضعوا لفظًا بإزاء لفظ جوابًا له وجزاءً ذكروه بمثل لفظه وإن كان مخالفًا له في معناه ، وعلى ذلك جاء القرآن والسّنّة » .

إنّ لفظة الطّائر في المواضع الثّلاثة لها معنيان ، قريبٌ وبعيد . وقد جاء هذان المعنيان بسبب الازدواج . أمّا المعنى القريب فهو الّذي يفهمه أولئك الكافرون ومن في حكمهم من كون لفظة الطّائر إنّما هي بمعنى الشّؤم وفق الطّريقة الجاهليّة الّتي يقصدونها من مجيء الجملة الّتي تعنى التّطيّر بمعنى التّشاؤم على لسانهم . إنّ مستوى إدراك الكافرين لا يتجاوز هذا المستوى المتواضع من الإدراك الّذي يقف عند هذا المعنى القريب ولا يستطيع أن يتعدّاه فيرقى إلى المعنى البعيد الّذي يريده القرآن الكريم ويريده رسل الله تعالى .

وإنّ المعنى البعيد الّذي يريده القرآن الكريم ويريده رسل الله تعالى من استعمال لفظة الطّائر هو أنّ ما أصاب الكافرين من سيّئة بإذن الله تعالى إنّما تمّ بسبب إتيان الكافرين من الشّرك وتكذيب رسل الله تعالى والمعاصي وتبديل نعمة الله تعالى كفرًا ما استحقّوا من أجله أن يغيّر الله سبحانه وتعالى ما بهم من نعمة وأن يحوّلها جلّ وعلا نقمة . جاء في هذا المعنى قول الحقّ جلّ وعلا[1] : ﴿ ذلك بأنّ الله لم يك مغيّرًا نعمةً أنعمها على قومٍ حتّى يغيّروا ما بأنفسهم وأنّ الله سميعٌ عليم ﴾ .

وهكذا يتبيّن أنّ الكافرين خلال العصور يفهمون معنى لفظة الطّائر كما جاءت في الآيات الكريمات على أنّه امتدادٌ لتشاؤمهم وتطيّرهم من وجود رسل الله تعالى والمؤمنين بين ظهرانَيْهم . إنّهم ليسوا مهيّئين إيمانيًّا وفكريًّا لأن يتخطّوا هذا المستوى المنخفض من الدّلالة . أمّا رسل الله تعالى فإنّهم في الحقيقة يريدون المستوى الآخر الرّفيع من الدّلالة وهو أنّ ما حلّ بهم من ضرّ وأصابهم من سيّئةٍ إنّما تمّ كلّ ذلك

---

(١) سورة الأنفال ٥٣ .

عقوبةً من الله تعالى لهم بسبب كفرهم وتكذيبهم رسل الله تعالى إليهم وإشراكهم مع الله تعالى سواه . إنّ ما حلّ بهم من سوء وحياةٍ خبيثةٍ فى الأولى هو رمزٌ لما سيحلّ بهم من سوءٍ وحياةٍ خبيثةٍ فى الآخرة إن لم يتوبوا توبةً نصوحاً ويؤمنوا ويعملوا صالحاً .

وبهذا تكون لفظة الطّائر فى الآيات الكريمات ذات وجهين أو مستويين من الدّلالة ، الوجه الأوّل هو الّذى يراه الكافرون ويفهمونه على أنّه ضربٌ من الشّؤم حلّ بهم بسبب وجود الرّسل والمؤمنين بين ظهرانيهم . وليس هذا هو المعنى الحقيقيّ للفظة الطّائر فى الآيات الكريمات . إنّ المعنى الحقيقيّ هو الوجه الآخر الّذى يريده رسل الله تعالى وهو المستوى الرّفيع من الدّلالة الّذى يفيد أنّ النّقمة الّتى حلّت بالقوم بعد النّعمة إنّما كانت عذابًا من الله تعالى حلّ بهم وانتقامًا منهم بقصد أن يتوبوا إلى الله تعالى توبةً نصوحًا وإلاّ تحقّقت فيهم سنّة الله تعالى الّتى مضت فى الأوّلين .

ومن البيّن أنّ هذا المستوى الرّفيع من الدّلالة لم تكن لفظة الطّائر قبل الإسلام تعرفه و لم تكن لتحلّق فى أجوائه العليا إلاّ عن طريق هذا الكتاب العزيز الّذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيلٌ من حكيمٍ حميد ، والّذى نزل بلسانٍ عربيٍّ مبين ، والّذى لم يلو للّغة العربيّة لحظةً من اللّحظات عنقًا فى استعمالاتها الحقيقيّة والمجازيّة على السّواء . وإنّ هذا المستوى الرّفيع والجديد من الدّلالة ، وإنّ هذه المعاني الإسلاميّة الّتى تمتلئ بها لفظة الطّائر على النّحو الّذى مرَّ بنا ، يتأكّد كلّ ذلك فى الاستعمال القرآنيّ الأخير للفظة الطّائر وذلك فى الآية الكريمة الثّالثة عشرة من سورة الإسراء . قال تعالى[1] : ﴿ وكلّ إنسانٍ ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابًا يلقاه منشورًا . اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك

---

(١) سورة الإسراء ١٣ و١٤ .

حسيبًا ﴾ .

وبشأن الآية الكريمة من سورة الإسراء الّتى جاءت فيها لفظة الطّائر سبق لنا أن درسناها من زاوية تطوّر الدّلالة فى أثناء دراستنا المتأمّلة لسورة الإسراء بعنوان : تأمّلاتٌ فى سورة الإسراء[1] ونودّ أن ندوّن هنا موجز تلك الدّراسة . إنّ الآية الكريمة الثّالثة عشرة : ﴿ وكلّ إنسانٍ ألزمناه طائره فى عنقه ونُخْرِج له يوم القيامة كتابًا يلقاه منشورا ﴾ تتحدّث عن كلّ إنسان سواءٌ كان مؤمنًا أو كافرًا ، برًّا أو فاجرًا . ولمّا كانت لفظة الطّائر قد استعملتها الآيات الكريمات من سور الأعراف والنّمل ويس للدّلالة على عمل الإنسان الصّالح وحظّه من الصّالحات ونصيبه من الخير فى ضوء تعاليم دين الإسلام لله ربّ العالمين ، وعلى عمل الإنسان الطّالح ونصيبه من السّيّئات وكِفْله من الشّرّ ، فإنّ هذا المستوى الرّفيع من الدّلالة تؤكّده هذه الآية الكريمة الثّالثة عشرة من سورة الإسراء . إنّها تقرّر أنّ كلّ إنسان صالحٍ أو طالح سوف يلزمه يوم القيامة طائره فى عنقه وعمله الّذى قام به فى الحياة الدّنيا وما كسب من صالحاتٍ وخير واكتسب من سيّئاتٍ وشرّ . جاء فى هذا المعنى قول الحقّ جلّ وعلا فى سورة آل عمران[2] : ﴿ يوم تجد كلّ نفسٍ ما عملت من خيرٍ مُحْضرًا وما عملت من سوءٍ تودّ لو أنّ بينها وبينه أمدًا بعيدًا . ويحذّركم الله نفسه. والله رءوفٌ بالعباد ﴾ .

إنّ الطّائر فى آية سورة الإسراء بالمعنى الّذى تبيّنّا سوف يلزم يوم القيامة عنق صاحبه . فإن كان الشّخص مؤمنًا والعمل صالحًا والحظّ من الخير كبيرًا كان ذلك الطّائر بمثابة الطّوق الّذى يحلّى عنق الحمامة المطوّقة ويزيّنه . وإن كان الشّخص غير ذلك والعمل سيّئًا والكفل من الشّرّ كبيرًا كان ذلك الطّائر بمثابة الغُلّ الّذى ينفرد

---

(١) ص ٨٤ ـ ٩٥ تحت عنوان : المحسن والمسيء مسئولان .

(٢) الآيــة ٣٠ .

بين سائر القيود بأنّه يجمع بطبيعته بين العنق واليدين اللّتين يشدّهما إلى العنق شدًّا أو بمنزلة الغريم الممسك بخناق غريمه . إنّ كلّ إنسانٍ لا يجهل ما قام به فى الحياة الأولى من خيرٍ أو شرّ ، وإنّه يوم القيامة يلزمه فى عنقه عمله الصّالح لزوم الطّوق جيد الحمامة المطوّقة فهو سعيدٌ به حريصٌ عليه ، أو عمله الطّالح لزوم الغُلّ عنقه ويديه ولزوم الغريم خناق غريمه . وفى ذلك اليوم المجموع له النّاس المشهود يُخْرَج له كتاب أعماله الّذى لا يغادر صغيرةً ولا كبيرةً إلاّ أحصاها والّذى يلقاه منشورًا والّذى يقرؤه ويحاسب نفسه بناءً على ما تضمّنه وبالتّالى يحكم لها أو عليها بين يدي الحكم له أو عليه .

وبعد هذه الجولة الطّويلة مع التّطيّر والطّائر من زاوية تطوّر الدّلالة والاستعمالات فى القرآن الكريم يتأكّد أنّ القرآن الكريم الّذى نزل بلسانٍ عربيٍّ مبين قد نهض بخصائص هذه اللّغة الشّريفة وحلّق بها إلى رفيع الأجواء وارتاد بها واسع الآفاق . وما كانت هذه اللّغة الشّريفة لتفعل ذلك لولا الإسلام ولولا هذا الكتاب العزيز الّذى لا يأتيه الباطل منا بين يديه ولا من خلفه تنزيلٌ من حكيمٍ حميد ولولا سنّة المصطفى ﷺ المبيّنة للقرآن الكريم .

وبرفض فرعون وآله آيتي السّنين ونقصٍ من الثّمرات إثر رفضهم آيتي العصا واليد يكونون قد رفضوا أربعًا من آيات موسى عليه السّلام التّسع . وإنّ القوم ليعلنون على رءوس الأشهاد أنّهم سوف يرفضون كلّ آيةٍ يأتى بها موسى عليه السّلام .

الآيتان رقم (١٣٢ ، ١٣٣)

قال تعالى : ﴿ وقالوا مهما تأتنا به من آيةٍ لِتَسْحَرَنا بها فما نحن لك بمؤمنين . فأرسلنا عليهم الطّوفان والجراد والقُمّل والضّفادع والدّم آياتٍ مفصّلاتٍ فاستكبروا وكانوا قومًا مجرمين ﴾ .

مهما اسم شرط جازم فعلين مبنيّ فى محلّ نصب مفعول به لفعلٍ محذوف يفسّره الفعل الظّاهر تقديره : تعطنا ، وهذا المقدّر يأتى بعد اسم الشّرط لأنّ له الصّدارة[1] إنّ فرعون وملأه يقولون لموسى عليه السّلام مهما تأتنا به من معجزةٍ لتسحرنا بها ، ومهما يكن حظّ آياتك من البعد والغرابة ، والّذى دلّ على البعد جملة : ﴿ تأتنا ﴾ ومهما يكن نصيبها من الكثرة والوفرة لتسحرنا بها وتغلبنا بها على قوانا العقليّة فما نحن لك بمؤمنين فى أيّ وقتٍ من الأوقات . ويلاحظ أنّ القوم يجيء على لسانهم القول : ﴿ لتسحرنا بها ﴾ كما أنّهم جاء على لسانهم فى سورة الزّخرف بعد أن أراهم الله تعالى على يد موسى عليه السّلام كلّ آيةٍ هي أكبر من أختها قول الحقّ جلّ وعلا[2] : ﴿ وقالوا يا أيّها السّاحر ادع لنا ربّك بما عهد عندك إنّنا لمهتدون ﴾ إنّ موسى عليه السّلام فى نظر القوم هو السّاحر دائمًا : ﴿ كبرت كلمةً تخرج من أفواههم إن يقولون إلاّ كذبًا ﴾ وإنّ المرء ليتساءل : هب أنّ آية العصا وآية اليد قد حصل بشأنهما اللّبس بالسّحر فى حقّ بعض القوم ألم يتأكّد للجميع بعد انهزام السّحرة أمام موسى وهارون عليهما السّلام أنّ آية موسى عليه السّلام قد أجراها الله تعالى على يديه عليه السّلام . فإذا تحوّلنا إلى آيتي السّنين والنّقص من الثّمرات تبيّنا أنّ هاتين الآيتين بعيدتان بطبيعتهما عن طبيعة السّحر ممّا يؤكّد أنّ القوم المصرّين على الكفر مصرّون على الكذب والادّعاء بأنّ موسى عليه السّلام ساحر وذلك على

---

(١) انظر الجدول فى إعراب القرآن وصرفه ٥ / ٤٧ .

(٢) سورة الزّخرف ٤٩ .

غرار اتّفاق كفّار مكّة على وصف المصطفى ﷺ بأنّه ساحر بسبب وجه الشّبه القويّ بين أثر الدّعوة إلى الله تعالى فى النّفوس المؤمنة المطمئنة وبين ما استقرّ فى النّفوس من قدرةٍ للسّحر على التّأثير فى المسحورين . ولقد تأكّد كذب كفّار مكّة بل إنّهم أعلنوا اتّفاقهم على إعلان ذلك النّوع المعيّن من الكذب من أجل صرف النّاس عن السّماع لدعوة خير خلق الله تعالى كلّهم محمّد بن عبد الله ﷺ . وتأكّد كذب فرعون وملئه . وقد نصّت على الكذب هاتان الآيتان الكريمتان من سورة النّمل . قال تعالى[1] : ﴿ فلمّا جاءتهم آياتنا مبصرةً قالوا هذا سحرٌ مبين . وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلمًا وعلوًّا . فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ﴾ إنّ فرعون وملأه مصرّون على وصف موسى عليه السّلام بأنّه ساحر بشأن كلّ آيةٍ يرونها هي أكبر من أختها من الآيات التّسع ، وحينما طلبوا من موسى عليه السّلام أن يدعو ربّه جلّ وعلا أن يرفع عنهم العذاب كي يؤمنوا ويبعثوا معه عليه السّلام بنى إسرائيل . لقد كان القوم كاذبين فى اتّهامهم وفى وعدهم . وحينما أصرّ القوم على الكفر والتّكذيب بعد آيتي السّنين ونقصٍ من الثّمرات أرسل الله تعالى عليهم وسلّط بقيّة الآيات التّسع الّتى أشارت إليها الاية الكريمة التّالية . قال تعالى : ﴿ فأرسلنا عليهم الطّوفان والجراد والقُمَّلَ والضّفادع والدّم آياتٍ مفصّلاتٍ فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين ﴾ .

نصّ السّياق من ذى قبل على آيتي السّنين ونقصٍ من الثّمرات وإلى الحسنة الّتى تجيء فرعون وملأه ومنها الغيث أو الماء ، وإلى السّيّئة ومنها انقطاع الماء والجدب . وبشأن الآيات الخمس بعد ذلك يلاحظ أنّ أوّل تلك الآيات هو الطّوفان . ويصحّ أن نظنّ أنّ الطّوفان وهو فى رأي ابن عبّاس كثرة الأمطار المغرقة المتلفة للزّروع والثّمار[2] جاء إثر جدبٍ وامتناع المطر . وكأنّ فرعون وملأه قد جاءتهم الحسنة كرّات وأصابتهم السّيّئة مرّات ، وإثر إحدى مرّات الجدب فاجأهم الطّوفان

---

(١) الآية ١٣ و١٤ . (٢) تفسير ابن كثير ٢ / ٢٤٠ .

وغمرهم الماء . وكأنّ حال فرعون وملئه وقت طلوع تباشير الغيث شبيهٌ بحال عادٍ قوم هودٍ عليه السّلام حينما رأوا سحابًا عرض فى أفق السّماء فظنّوه رحمةً وكان عذابًا . جاء فى سورة الأحقاف[1] قوله تعالى : ﴿ فلمّا رأوه عارضًا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارضٌ ممطرنا بل هو ما استعجلتم به . ريحٌ فيها عذابٌ أليم . تدمّر كلّ شيءٍ بأمر ربّها فأصبحوا لا يُرَى إلاّ مساكنهم . كذلك نجزى القوم المجرمين ﴾ .

وما أشدّ أذى الطّوفان الّذى يغمر كلّ شيءٍ ويكتسح كلّ شيء ، خاصّةً إذا اقترنت به الأعاصير الّتى تقتلع كلّ شيء . والمعروف أنّ للطّوفان ضررًا مباشرًا وهذا واضح ، وضررًا غير مباشر . فالثّابت أنّ للحشرات الضّارّة والأفاعى وما إليها ممّا يفرّ أمام الطّوفان من الآثار الضّارّة ما قد يفوق الضّرر المباشر للطّوفان . ومن المعروف أنّ الطّوفان فى اكتساحه كلّ ما يصادفه يكتسح فى طريقه ما قد يدّخره النّاس فى بيوتهم من طعام . ونظنّ أنّ شيئًا من هذا النّوع من الضّرر قد حلّ بآل فرعون . وبذلك تكون آيتا السّنين والنّقص من الثّمرات قد أكملت عملهما آية الطّوفان الّذى جرف معه ما قد يكون مدّخرًا من طعام .

ومن مظاهر رحمة الله تعالى حينما يرسل الطّوفان على قوم ويسلّطه عليهم على نحو ما حدث لآل فرعون أنّ ماء الطّوفان يحمل فى أحشائه الطّمي الصّالح للزّراعة وبذلك تكون التّربة خصبةً ومستعدّةً بإذن الله تعالى لأن تربو وتنبت من كلّ زوجٍ بهيج بأقلّ الجهد وأبسط الأدوات . والمعروف أنّ الزّرع كي يخرج شطأه ويستغلظ ويستوي على سوقه وينبت من كلّ زوجٍ بهيج يحتاج إلى شيءٍ من الوقت . وكأنّ هذا وقت إمهالٍ من الله تعالى لأولئك المكذّبين كي يتحوّلوا إلى جادّة الصّواب وإلاّ تحوّلت النعمة بإرادة الله تعالى نقمة . وبما أنّ فرعون وملأه لم يستفيدوا من فترة الإمهال هذه ومن آية موسى عليه السّلام الخامسة هذه فقد أرسل الله سبحانه

---

(١) الآية ٢٤ و٢٥ .

وتعالى وسلّط عليهم الآية السّادسة وهي الجراد الّذى يبدو عمله وأذاه بإرادة الله تعالى من اسمه ، فهو يجرد الأرض من النّبات . يقال : أرضٌ مجرودةٌ أي أُكِل ما عليها حتّى تجرّدت ، وفرسٌ أجرد منحسر الشّعر ، وثوبٌ جَرْد خَلَق وذلك لزوال وبره وقوّته(١) .

وإذا كان الطّوفان بطبعه يغمر مساحاتٍ شاسعةً من الأرض فإذا انحسر ترك وراءه التّربة الخصبة والأرض المرتوية بالماء فذلك معناه أنّ الخضرة قابلةٌ بعد الطّوفان أن تصل حيث وصل أقصى مدّ الطّوفان . ونستطيع أن نفهم أنّ فرعون وملأه بدلاً من أن يستفيدوا من فترة الإمهال هذه حتّى تكتسي الأرض بثوبها السّندسيّ الأخضر وتنبت من كلّ زوجٍ بهيج فيتوبوا إلى الله تعالى توبةً نصوحًا بأن يؤمنوا ويعملوا صالحًا هم أصرّوا على كفرهم وتكذيبهم فأرسل الله تعالى عليهم آية الجراد.

والمعروف أنّ الجراد نَهِمٌ بطبعه ، والمعروف كذلك أنّه لكثرته يحجب في المناسبات المعتادة عين الشّمس . وكأنّ هذا النّوع من الجراد الّذى جعله الله تعالى آيةً لموسى عليه السّلام يتّسم بشيءٍ من خصوصيّة الحجم والقوّة والوفرة . وفى هذه الآونة ترصد آلات التّصوير بعض حبّات الجراد المخيف حجمه . ونظنّ أنّ الجراد على عهد موسى عليه السّلام كان من هذا القبيل . ومن هنا استطاع الجراد أن يجعل أرض مصر جرداء إثر الفيضان المعروف بحمله معه أجود أنواع التّربة ، فكيف إذا كان الطّمي يُحْمَل إلى وادى النّيل والدّلتا وهما من أشدّ بلاد الله تعالى خصوبة . إنّ كلّ هذه الملابسات تهيّئ للفهم بأنّ ذلك النّوع من الجراد كان بأمر الله تعالى بعض جنده الّذين أرسلهم وسلّطهم على فرعون وملئه آيةً لموسى عليه السّلام .

وهكذا يتبيّن أنّ الطّوفان أتى بإرادة الله تعالى على البقيّة الباقية من النّباتات والثّمرات إثر آيتي السّنين ونقص الثّمرات . وحينما كادت الأرض تنبت من كلّ زوجٍ بهيج ولم يستفد فرعون وملؤه من فترة الإمهال سلّط الله سبحانه وتعالى

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « جرد » ٩٠ .

عليهم الجراد فأكل كلّ ما كان فى العراء من نباتٍ وثمر . وبذلك لم يكد يبقى لدى القوم من الطّعام سوى المدّخر فى البيوت . ونستطيع أن نفهم أنّ مصر على عهد فرعون موسى عليه السّلام كانت تدّخر الطّعام وفق الطّريقة الّتى نصح بها يوسف عليه السّلام ملك مصر العادل آنذاك فى قول الحقّ جلّ وعلا على لسان يوسف عليه السّلام[1] : ﴿ قال تزرعون سبع سنين دأبًا فما حصدتم فذروه فى سنبله إلاّ قليلاً ما تأكلون ﴾ إنّ كلّ إنسانٍ فى مصر يعلم أنّ ترك الحبّ فى سنبله أيسر السّبل لادّخاره والأخذ منه وقت الحاجة . بل إنّ كلّ إنسانٍ يستطيع أن يفهمك بأنّ هذه الحكمة والقدرة الإلهيّتين تتحقّقان فى غير الحبوب كذلك . فعلى سبيل المثال يظلّ عود القصب محتفظًا بعصيره ما شاء الله تعالى له أن يبقى . فإذا خرج العصير من قصبه ينبغى استهلاكه سريعًا وإلاّ أَسِن وفسد . ويصحّ أن يكون فرعون وملؤه لديهم كمّيّاتٌ من هذا المدّخر من الطّعام . ويصحّ أن يكون الشّىء ذاته لدى الكثير من أفراد الشّعب وبخاصّةٍ الأغنياء . وحينما لم يقدر فرعون وملؤه وقومه هذه النّعمة وهذه الرّحمة من الله تعالى الّتى تظلّ تشملهم حتّى فى أحلك الأوقات ، فها هو ذا الطّعام المدّخر بإرادة الله تعالى يُمْسك رمقهم ، وحينما بدّل القوم نعمة الله تعالى كفرًا سلبهم جلّ وعلا هذه النّعمة . لقد تمّ ذلك عن طريق الآية السّابعة الّتى أيّد الله تعالى بها موسى عليه السّلام وهي آية القُمّل . والقُمَّل هو السّوس الّذى يخرج من الحِنْطة[2] وما فى حكمها . إنّ السّوس أكل بإرادة الله تعالى الحبوب فى سنابلها خلافًا للمعتاد آيةً لموسى عليه السّلام . وإنّ فرعون وملأه وقومه حينما أرادوا أن يأكلوا الحبوب المدّخرة فى سنابلها فوجئوا بأنّ السّوس قد سبق إلى أكلها خلافًا للعادة . والعجيب فى أمر فرعون وملئه أنّهم ما زادتهم هذه الآية : ﴿ إلاّ نفورًا . استكبارًا فى الأرض ومكر السّيّئ ﴾[3] .

---

(١) سورة يوسف ٤٧ .

(٢) تفسير الطّبريّ ٩ / ٢٢ .

(٣) سورة فاطر ٤٢ و٤٣ .

وإنّه بالنّظر إلى الآيات الّتى خصّ الله تعالى بها موسى عليه السّلام من السّنين ونقص الثّمرات والطّوفان والجراد والقمّل فإنّا نتبيّن أنّها كلّها ذوات علاقةٍ بالطّعام والشّراب . إنّه بسبب امتناع القطر كانت السّنون ونقص الثّمرات . وإذا كان الطّوفان ماءً فقد كان بإرادة الله تعالى هلاكًا . وإذا كان الجراد طعامًا فقد كان بإرادة الله تعالى بلاءً .

وإذا كنّا بشأن الطّوفان تبيّنّا رحمة الله تعالى الّتى تمثّلت فى الزّرع بعد الطّوفان والّذى كاد يكون بإذن الله تعالى نعمةً على القوم شاملةً لو آمنوا وعملوا صالحًا ولكنّهم كفروا فأرسل الله تعالى عليهم الجراد ، فإنّا بشأن الجراد نتبيّن كذلك رحمة الله تعالى بالقوم . إنّ الجراد ذاته نوعٌ من الطّعام . وكأنّ الجراد حينما يجرد الزّرع فإنّ فرعون وملأه والقبط يستطيعون بواسطة الجراد أن يسدّوا رمقهم إضافةً إلى المدّخر من الطّعام فى سنبله . ومن البيّن أنّ جرد الجراد للأرض وأكل المصريّين للجراد استغرق بعض الوقت الكافى بإذن الله تعالى لأن يعود القوم إلى الصّراط المستقيم لو كانوا جادّين فى البحث عن الحقّ والحقيقة ولكنّهم لاهون عابثون . وحينما لا يجد الجراد ما يأكله يهاجر وبذلك يتعاون عدم وجود الجراد الخضرة كي يأكلها وأكل القوم له على ذهاب الجراد واختفائه وذهاب نوعٍ من الطّعام يتعاون مع الحبّ فى سنبله على سدّ رمق القوم .

وحينما اختفى الجراد ولم يؤمن القوم واطمأنّوا إلى المدّخر من الحبّ فى سنبله سلّط الله تعالى سبحانه وتعالى السّوس على الحبّ المدّخر . وما معنى ضياع الحبّ المدّخر فى سنبله وذهابه هباءً بإرادة الله تعالى : معناه أنّ حاجة القوم شديدةٌ للطّعام الّذي لا يكون إلاّ بالماء . وهنا نتبيّن أنّ الآيتين الثّامنة والتّاسعة ، الضّفادع والدّم ، ذواتا علاقةٍ بالطّعام والشّراب على التّوالى .

وإنّ تسليط الله تعالى الضّفادع على فرعون وقومه يذكّرنا بتسليط الله تعالى فى هذه الآونة فريقين من جنده هما الضّفادع والأرانب ، على قارّة أستراليا أصغر القارّات وأكبر الجزر والّتى يبلغ عدد سكّانها حاليًّا زهاء ستّة عشرة مليون نسمة ،

كما يذكّرنا بما استقرّ في رُوع بعض العرب في حقّ الضّفادع بأنّها لسهولة وجودها ويسر تكاثرها ربّما نزلت مع ماء المطر ! إنّ الجاحظ قد رفض في كتاب الحيوان[١] ظنّ العرب نزول الضّفادع من السّحاب ، ومع أنّ التّعليل الّذي ذكره سببًا لوجود الضّفادع مع السّيل الجارى منطقيٌّ إلاّ أنّه ليس علميًّا فقد قال[٢] معلّلاً: « وتلك الضّفادع إنّما هي شيءٌ يُخلَق تلك السّاعة ، من طباع الماء والهواء والزّمان وتلك التّربة ، على مقاديرَ ومقابلات ، وعلى ما أجرى الله تعالى عليه نشأة الخلق » . ومع أنّ العلم قد تبيّن قدرة الضّفادع بإرادة الله تعالى على أن تختفي في أعماق التّربة حيث لا هواء ولا طعام ولا ماء اللّيالي والأيّام ذوات العدد حتّى إذا واتت الفرصة وهطل المطر سبحت في مائه وقفزت في شطآنه فظنّ بعضهم أنّها نزلت لتوّها من السّماء مع ماء المطر ، مع ذلك فإنّ الّذي استقرّ في النّفوس هو سهولة وجود الضّفادع ويسر تكاثرها . وممّا يعمّق من الواقع هذه الحقيقة ويؤكّدها ما تواترت به الأنباء وأكّدته الصّور من تسليط الله تعالى الأرانب والضّفادع على قارّة أستراليا . وكلٌّ من الجندين معروفٌ بسرعة التّناسل والتّكاثر . وبشأن الضّفادع مجال الآية الثّامنة الّتي اصطفى الله تعالى بها موسى عليه السّلام تبيّن بشأنها في قارّة أستراليا أنّها من النّوع السّامّ والضّخم بحيث إنّ الواحدة منها تملأ طبق الطّعام : ﴿ وما يعلم جنود ربّك إلاّ هو ﴾[٣] .

إنّ الضّفادع بطبعها قابلةٌ للتّكاثر والنّموّ سريعًا فكيف بهذا النّوع من جند الله تعالى إذا أراد جلّ وعلا تسليطه على طاغية عصره وكلّ عصر فرعون موسى عليه السّلام . إنّا من حقّنا أن نتخيّل كلّ أرض مصر وقد سالت بالضّفادع الّتي غطّت الأرض وركب بعضها بعضًا لكثرتها وملأت كلّ مكان نقيقًا[٤] وقفزًا حتّى إنّ كلّ من فتح فاه لأيّ سببٍ من الأسباب وثَبَتْ فيه على الفور ضفدعة ![٥] .

---

(١) الحيوان ١ / ١٥٦ .
(٢) الحيوان ١ / ١٥٦ .
(٣) سورة المدّثّر ٣١ .
(٤) يقال : نَقَّ الضّفدع نقيقًا صات .
(٥) انظر مثلاً تفسير الطّبريّ ٩ / ٢٣ وتفسير ابن عطيّة ٦ / ٥١ .

ولا نظنّ أنّ فرعون وملأه وقومه ممّن يستسيغون أكل الضّفادع . وهب أنّ منهم من يستسيغ أكلها فإن مشكلة الضّفادع قد تجلّت في تلك الكثرة الغامرة الّتي ظهرت فيها بحيث إنّها سبّبت لفرعون وملئه أشدّ الضّيق والأذى .

ورغم المشقّة الّتي كابدها القوم فإنّهم استمرّوا في كفرهم وتكذيبهم لموسى عليه السّلام ، فسلّط الله تعالى عليهم آخر آيات موسى عليه السّلام التّسع وهي المتعلّقة هذه المرّة بالشّراب بحيث إنّ جنس الماء في مصر تحوّل دمًا . ومعروفٌ أنّ ربّ العزّة قد جعل من الماء كلّ شيءٍ . قال تعالى[1] : ﴿ وجعلنا من الماء كلّ شيءٍ حيّ ﴾ وحينما يتحوّل جنس الماء في مصر دمًا عبيطًا[2] خالصًا طريًّا فذلك معناه أنّ عماد الحياة بإرادة الله تعالى ، وهو الماء الّذي يعتبر أعزّ مفقود ، ليس موجودًا . ومعنى عدم وجود الماء الموت الأكيد بإرادة الله تعالى . إنّ هذا المصير قد تمثّله فرعون وملؤه وقومه . ومع أنّ القوم قد استكبروا وكانوا ، بنصّ القرآن الكريم ، قومًا مجرمين في حقّ الآيات التّسع كلّها فإنّه يبدو ــ والله أعلم ــ أنّ آية الدّم الّذي حلّ محلّ الماء بما في ذلك ماء الشُّرب ، هي أشدّ الآيات إيلامًا لفرعون وملئه وقومه ، وكأنّ لفظة الرّجز بمعنى العذاب في الآية الكريمة التّالية تنصرف في المقام الأوّل إلى آية الدّم ، خاصّةً وأنّ كلّ الآيات التّسع قد وصفتها الآية الكريمة بأنّها آياتٌ مفصّلاتٌ بيّناتٌ بالغات الدّلالة على أنّ موسى عليه السّلام رسول ربّ العالمين .

وقياسًا على كون آيتي الطّوفان والجراد يجب أن تحدثا بهذا التّرتيب يصحّ القول إنّ آيتي الضّفادع والدّم حدثتا بهذا التّرتيب كذلك . وإنّ هذه النّظرة مسعفةٌ لنا حينما نذهب إلى أنّ العذاب الّذي كان أشدّ من سابقه والّذي شكا منه آل فرعون لموسى عليه السّلام هو آية الدّم ، وقياسًا على كون آيتي الجراد والقمّل يصح ان تحدثا معًا بأن يجرد الجراد الزّرع ويقضي السّوس على الحبوب المدّخرة يصحّ القول

---

(١) سورة الأنبياء ٣٠ .

(٢) تفسير ابن كثير ٢ / ٢٤٢ .

إنّ آيتي الضّفادع والدّم حدثتا معًا . والّذى يرجح ـ والله تعالى أعلم ـ أنّ آية الدّم كانت قد حدثت بعد آية الضّفادع بسبب استقلال كلٍّ من الآيتين بخصائصها . إنّ هذا التّرجيح مسعفٌ لنا فى تحديد معنى الرّجز فى .

الآيـــة رقـــم (١٣٤)

قال تعالى : ﴿ ولمّا وقع عليهم الرّجز قالوا يا موسى ادع لنا ربّك بما عَهِدَ عندك لئن كشفت عنّا الرّجز لنؤمننّ لك ولنُرْسلنّ معك بنى إسرائيل ﴾ .

إنّ جملة وقع تذكّرنا بالجملة ذاتها فى الآية الكريمة الثّامنة عشرة بعد المائة . قال تعالى : ﴿ فوقع الحقّ وبطل ما كانوا يعملون ﴾ فكما وقع الحقّ وثبت بشأن موسى عليه السّلام وقع العذاب وثبت فى حقّ فرعون وملئه . وينبغى أن يكون وقع الرّجز بمعنى العذاب[1] فى حقّ القوم شديدًا وأخذه أليمًا . وسبق أن ذهبنا إلى كون العذاب الّذى آلم القوم بأكثر من غيره هو آية الدّمّ لسببين اثنين . السّبب الأوّل أنّ جنس الماء حينما يتحوّل دمًا غضًّا طريًّا بما فى ذلك ماء الشّرب تتعذّر الحياة . والسّبب الآخر أنّ فرعون وملأه قد أنهكتهم الآيات الثّمان السّابقات معنويًّا وجسديًّا . وحينما جاءت الآية التّاسعة والأخيرة كانت طاقة القوم على وشك النّفاد لهذا كان وطء آية الدّم شديدًا ومن ثمّ صحّ وصفها بالرّجز بمعنى شديد العذاب .

إنّ قوم فرعون حينما وقع عليهم العذاب وأصابهم ولم يخطئهم وربّما امتدّ وقته حتّى ظنّوا أنّه لن يتحوّل عنهم قالوا لموسى عليه السّلام ما قالوا ولجأوا إليه عليه السّلام دون سواه لأنّهم موقنون فى أعماقهم أنّه رسول ربّ العالمين ولكنّه الكبر فى حقّ فرعون والهوان فى حقّ قومه .

ويبدو سوء أدب القوم والمؤشّر على خبث طويّتهم من ندائهم موسى عليه السّلام فى هذا الأسلوب الفظّ : ﴿ يا موسى ﴾ إنّ هؤلاء القوم القليلى الأدب

---

(١) تفسير الطّبريّ ٩ / ٢٨ وتفسير ابن عطيّة ٦ / ٥٢ .

والعقول ما الّذى يمنعهم من إعـلان إيمـانهم على الفـور دون تأخـيره وتعليقـه برفـع الرّجز ودفع العذاب بواسطة موسى عليـه السّـلام . ألم تكفهـم آيـات موسـى عليـه السّلام التّسع ؟ بلى بنصّ القرآن . إنّ القـوم لم تكـن تنقصهـم الحجّـة ولكـنّ الّـذى كان ينقصهم الشّجاعة بإعلان التّخلّى عن الكفر والباطل والتحلّى بالإيمان والحـقّ . وإنّ الدّليل على خبث طويّة القوم ربط الإيمان برفع العذاب . وإنّ الدّليل على إيقـان القوم أنّ موسى عليه السّلام رسـول ربّ العـالمين القـول علـى لسـان القـوم : ﴿ يـا موسى ادع لنا ربّك بما عهد عندك ﴾ إنّ القوم على علمٍ بـأنّ موسـى عبـدٌ لله ربّ العالمين ورسولٌ لله ربّ العالمين ولا يملـك سـوى دعـاء أرحـم الرّاحمـين . لهـذا هـم يطلبون من موسى عليه السّلام أن يدعو ربّه جلّ وعلا .

والدّليل على أنّ القوم إنّما يهدفون من طلبهـم مـن موسـى عليـه السّـلام الدّعـاء مصلحتهم الشّخصيّة وحدها مجيء الجارّ والمجرور : « لنا » فى القـول : ﴿ ادع لنـا ربّك ﴾ إنّ اتّجاه القوم إلى موسى عليه السّلام ليس من أجل الإيمان به عليه السّـلام وإرسال بنى إسرائيل معه عليه السّلام إنّما من أجل رفع العـذاب عنهـم . فـإذا رُفِـعَ عنهم العذاب بقوا على كفرهـم ونكثـوا العهـد ونقضـوا الوعـد . وإنّ القـوم الّذيـن يعلمون صدق موسى عليه السّلام فى كلّ ما قال لهم ومن ذلك ما عهد جـلّ وعـلا لموسى عليه السّلام وأوحى إليه بأنّ القوم إن آمنوا بالله ربّ العالمين وصدّقوا موسى عليه السّلام فإنّه جلّ وعلا سيكشف عنهم العذاب ، إنّ القوم يستغلّون هـذا القـول لمصلحتهم الشخصيّة وذلك فى القول الّذى جرى على لسانهم : ﴿ يـا موسـى ادع لنا ربّك بما عهد عندك ﴾ يقول : بما أوصاك وأمرك[1] أوحـى إليـك وأعلمـك بـأن يكشف عنّا العذاب إن آمنّا . إنّ كلّ الّذى نطلبه منك يا موسـى أن يتقـدّم كشـف العذاب على الإيمان لا أن يتقدّم الإيمان علـى كشـف العـذاب . وإنّـا لنقسـم لـك : ﴿ لئن كشفت عنّا الرّجز ﴾ ورفعت عنّا ، بدعائك ربّك ، العذاب : ﴿ لنؤمننّ لك

---

(١) تفسير الطّبرىّ ٩ / ٢٩ .

ولنرسلنّ معك بنى إسرائيل ﴾ إنّ ربّك يا موسى لو كشف عنّا العذاب بدعائك لـه من أجلنا وإنّ ربّك لو استجاب دعاءك فرفع عنّا الرّجز فإنّا نعطيك العهد بأن نؤمن لك ونصدّق أنّك رسول ربّ العالمين من ناحية ، وأن نرسل معك بنى إسرائيل إلى أرض الشّام من ناحيةٍ أخرى .

الحقيقة أنّه لا يوجد أيّ مبرّر لتأخير القوم إعلان الإيمان بموسى عليه السّلام سوى أنّ القوم إنّما يريدون دفع العذاب وكشف الرّجز عنهم ولهذا هم بيّنوا العزم على نقض العهد وإخلاف الوعد وإنّ الدّليل على خبث طويّة القوم وسوء نيّتهم تعليق الإيمان بكشف الرّجز . بل إنّ ثمّة دليلاً آخر يؤكد سوء نيّة القوم وهو أنّ القوم لم يكتفوا بالوعد بالإيمان وحده بل وبإعلانهم الاستعداد لتلبية الطّلب الّذى جاء على لسان موسى عليه السّلام بين يدي فرعون بأن يرسل معه عليه السّلام بنى إسرائيل على نحو ما جاء فى الآية الكريمة الخامسة بعد المائة . قال تعالى[1] : ﴿ وقال موسى يا فرعون إنّى رسولٌ من ربّ العالمين . حقيقٌ علىّ ألاّ أقولَ على الله إلاّ الحقّ . قد جئتكم ببيّنةٍ من ربّكم فأرسل معي بنى إسرائيل ﴾ .

ويصحّ لنا أن نظنّ أنّ هذه هي المرّة الأولى الّتى أعلن فيها فرعون وملؤه لموسى عليه السّلام بأنّهم مستعدّون للإيمان بعد كشف العذاب عنهم ولهذا كانت مفاجأة موسى عليه السّلام كبيرةً لعدم إيمان القوم ونكثهم العهد على نحو ما يفهم من حرف المفاجأة إذا فى .

الآيـــة رقـــم (١٣٥)

قال تعالى : ﴿ فلمّا كشفنا عنهم الرّجز إلى أجلٍ هم بالغوه إذا هم ينكثون ﴾ .

تقرّر الآية الكريمة أنّ ربّ العزّة لمّا استجاب دعاء عبده المصطفى موسى عليه السّلام وكشف جلّ وعلا عن القبط العذاب : ﴿ إلى أجلٍ هم بالغوه ﴾ وغايةٍ هم

(١) سورة الأعراف ١٠٤ و١٠٥ .

منتهون إليها ، ومصيرٍ هم صائرون إليه ، ووقتٍ محدّدٍ تنتهى عنده آجالهم ، وموعدٍ معيّن يخترمهم الموت فيه بالكيفيّة الّتى أرادها القابض الباسط جلّ وعلا ، إذا هم ينكثون العهد وينقضون الموثق ويخلفون الوعد . وإذا ههنا حرف للمفاجأة[1] إنّ موسى عليه السّلام رسول ربّ العالمين فوجئ بهذا الموقف العجيب من القبط بنقض العهد المؤكّد بأن يؤمنوا إن كشف الله تعالى العذاب واستجاب دعاء موسى عليه السّلام من أجلهم . إنّ موسى عليه السّلام كان ينتظر إيمان القبط بعد كشف العذاب عنهم إلى أن يلقوا الله تعالى بانقضاء آجالهم واختزام الموت لهم فى الكيفيّة الّتى أراد الله تعالى انتهاء حياتهم وفقها . ونستطيع أن نفهم أنّ موسى عليه السّلام الّذى دعا للقبط من قبل برفع العذاب دعا عليهم بعد ذلك بوقوع العذاب الشديد عليهم ونزوله بساحتهم . جاء فى سورة يونس[2] قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿ وقال موسى ربّنا إنّك آتيت فرعون وملأه زينةً وأموالاً فى الحياة الدّنيا ربّنا ليضلّوا عن سبيلك ربّنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتّى يروا العذاب الأليم ﴾ وقد أشارت الآية الكريمة التّالية إلى انتقام الله تعالى منهم فإلى .

الآيـــة رقـــم (١٣٦)

قال تعالى : ﴿ فانتقمنا منهم فأغرقناهم فى اليمّ بأنّهم كذّبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين ﴾ .

يُعْتَبَرُ فرعون وملؤه وقومه تجسيدًا للأقوام المكذّبين الّذين جاء عنهم بين يدي الحديث عن موسى عليه السّلام فى هذه السّورة قول الحقّ جلّ وعلا[3] : ﴿ وما وجدنا لأكثرهم من عهدٍ وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين ﴾ لقد نقض القوم عهد الله

---

(١) تفسير ابن عطيّة ٦ / ٥٣ والجدول في إعراب القرآن وصرفه ٥ / ٥٢ .

(٢) الآيـــة ٨٨ .

(٣) سورة الأعراف ١٠٢ .

تعالى والموثق الّذى آتوه على أنفسهم موسى عليه السّلام فلم يؤمنوا ومن باب الأَوْلى والأحرى هم لن يرسلوا مع موسى عليه السّلام قومه بنى إسرائيل . وتجاه هذا الغدر من القوم الّذى فوجئ به موسى عليه السّلام كما فوجئ به الجميع انتقم الله سبحانه وتعالى من فرعون وملئه بأن أغرقهم فى اليمّ وهو البحر المالح[1] الّذى كان يعرف قديمًا ببحر القُلْزُم ويعرف حاليًّا بالبحر الأحمر . وقد نصّت الآية الكريمة على السّبب فى إهلاك القوم : ﴿ بأنّهم كذّبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين ﴾ .

أمّا التّكذيب بآيات الله تعالى فقد تبيّن ذلك من تكذيب القوم الآيات التّسع الّتى أيّد الله تعالى بها موسى عليه السّلام والّتى ذكرتها على التّفصيل سورة الأعراف وحدها من بين سور القرآن الكريم .

وأمّا غفلة القوم بمعنى تبلّد إحساسهم وموت شعورهم فإنّ كلّ ذلك بسبب تكذيبهم آيات الله تعالى بألسنتهم فى الوقت الّذى توقن فيه قلوبهم الّتى فى صدورهم بصدقها ، وبسبب ما يترتّب على نكث عهدهم مع رسول الله تعالى إليهم موسى عليه السّلام .

إنّ انتقام الله تعالى منهم كان قاسيًا وقد تجلّى ذلك ابتداءً فى إغراق الله تعالى فرعون وملأه وقومه فى الماء المِلْح بحيث إنّهم صاروا فى حكم من انقطع نسله فورثه غيرهم . وكان ذلك الميراث وتلك التّركة من نصيب المستضعفين فى الأرض الّذين أشارت إليهم الآية الكريمة التّالية . ومِنَ الّذين ورثهم بنو إسرائيل قوم موسى عليه السّلام على نحو ما بيّنت الآية الكريمة التّاسعة والخمسون من سورة الشّعراء . ومن الآيات الكريمات الّتى تحدّثت فى شىءٍ من التّفصيل عن الإغراق والإنجاء هذه الآيات الكريمات من سورة الشّعراء[2] قال تعالى : ﴿ وأوحينا إلى موسى أن أَسْرِ بعبادي إنّكم متّبعون . فأرسل فرعون فى المدائن حاشرين . إنّ هؤلاء لشِرْذِمَةٌ قليلون . وإنّهم لنا لغائظون . وإنّا لجميعٌ حاذرون . فأخرجناهم من جنّاتٍ وعيون.

---

(١) الجلالين (٢) الآيات ٥٢ ـ ٦٨ .

وكنوزٍ ومقامٍ كريم . كذلك وأورثناها بنى إسرائيل . فأتْبعوهم مشرقين . فلمّا تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنّا لمدركون . قال كلاّ إنّ معي ربّي سيهدين . فأوحينا إلى موسى أن أضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كلُّ فِرْقٍ كالطّود العظيم . وأزلفنا ثَمَّ الآخَرين . وأنجينا موسى ومن معه أجمعين . ثمّ أغرقنا الآخَرين . إنّ فى ذلك لآيةً وما كان أكثرهم مؤمنين . وإنّ ربّك لهو العزيز الرّحيم ﴾ وقد بيّنت سورة يونس ما جرى لفرعون على التّفصيل . قال تعالى[1] : ﴿ وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وجنوده بغيًا وعَدْوًا حتّى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنّه لا إله إلاّ الّذى آمنَتْ به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين . آلآن وقد عصيتَ قَبْلُ وكنتَ من المفسدين . فاليوم ننجّيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية . وإنّ كثيرًا من النّاس عن آياتنا لغافلون ﴾ .

ومن البيّن أنّ الآية الكريمة الأخيرة من آيات سورة يونس والآية الكريمة الّتى نحن بصددها من سورة الأعراف تحذّر من الغفلة والأمن من مكر الله تعالى . وبعد الحديث عن إغراق فرعون وملئه يجيء الحديث عن الوارثين الّذين هم كذلك محطّ ابتلاءٍ واختبارٍ من الحكيم الخبير جلّ وعلا فإلى .

الآيـــة رقـــم (١٣٧)

قال تعالى : ﴿ وأورثنا القوم الّذين كانوا يُسْتَضْعَفون مشارق الأرضِ ومغاربها الّتى باركنا فيها وتمّت كلمة ربّك الحُسْنَى على بنى إسرائيل بما صبروا ودمّرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يَعْرِشون ﴾ .

إذا كانت هذه الآية الكريمة من سورة الشّعراء[2] : ﴿ كذلك وأورثناها بنى إسرائيل ﴾ قد جعلت بنى إسرائيل هم الوارثين فإنّ هذه الآية الكريمة من سورة

---

(١) سورة يونس ٩٠ - ٩٢ . (٢) الآية ٥٩ .

الدّخان[١] : ﴿ كذلك وأورثناها قومًا آخرين ﴾ تشير إلى بنى إسرائيل بأنّهم قومٌ آخرون ، أي من غير القبط قوم فرعون الّذين أغرقهم الله تعالى معه . وإنّ الآية الكريمة من سورة الأعراف تقرّر أنّ ربّ العزّة قد أورث القوم الّذين كان يستضعفهم فرعون وملؤه مشارق أرض الشّام ومغاربها الّتى بارك الله سبحانه وتعالى فيها من النّاحيتين الدّينيّة فهي أرض الأنبياء والدّنيويّة فهي أرض الخيرات . كما تقرّر الآية الكريمة أنّه بإنجاء موسى وقومه وإغراق فرعون وقومه قد تمّت كلمة ربّك الحُسْنى أيّها الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم على بنى إسرائيل بسبب صبرهم . أمّا هذه الكلمة فهي قول الحقّ جلّ وعلا فى سورة القصص[٢] : ﴿ ونريد أن نمنّ على الّذين استضعفوا فى الأرض ونجعلَهم أئمّةً ونجعلَهم الوارثين . ونمكّن لهم فى الأرض ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون ﴾[٣] والحُسْنَى مؤنّث الأحسن تفضيل الحَسَن وضدّ السُّوءى والعاقبةُ الحسنة[٤] .

وإذا كان الإغراق من نصيب فرعون وملئه فإنّ التّدمير كان من نصيب ما كان يصنع فرعون وقومه ويجيدون فعله وصنعه[٥] من العمارات والمزارع وما كانوا يعرشون وينون من الأبنية والقصور[٦] جاء فى هذا المعنى فى سورة الدّخان[٧] قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿ كم تركوا من جنّاتٍ وعيون . وزروعٍ ومقامٍ كريم . ونَعْمةٍ كانوا فيها فاكهين . كذلك وأورثناها قومًا آخرين . فما بكت عليهم السّماء والأرض وما كانوا منظرين . ولقد نجّينا بنى إسرائيل من العذاب المهين . من فرعون إنّه كان عاليًا من المسرفين . ولقد اخترناهم على علمٍ على العالمين . وآتيناهم من الآيات ما فيه بلاءٌ مبين ﴾ .

---

(١) الآية ٢٨ . (٢) الآيــة ٥ و٦.
(٣) انظر تفسير الطّبريّ ٢/٣٠ وتفسير ابن كثير ٢/٢٤٢ .
(٤) انظر مثلاً القاموس المحيط : « حسن » .
(٥) انظر مثلاً مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « صنع » ٢٨٦ .
(٦) انظر مثلاً تفسير الطّبريّ ٩ / ٣٠ . (٧) الآيات ٢٥ ـ ٣٣ .

وإنّ مجيء لفظ الرّبّ المتّصل به ضمير المخاطب العائد إلى المصطفى ﷺ ينبّه إلى أنّ من أهداف سرد هذا القصص تسلية المصطفى ﷺ وتثبيت فؤاده عليه الصّلاة والسّلام هو والفئة المكّيّة المؤمنة القليلة العدد آنذاك . والحقيقة أنّ حديث سورة الأعراف المكّيّة المستفيض عن بنى إسرائيل الّذين لم يكونوا يسكنون منطقة مكّة المكرّمة بل منطقة المدينة المنوّرة وغيرها من المناطق من عجائب هذا الكتاب العزيز الّذى لا تنقضى عجائبه ، ومن الأدلّة على أنّ رسالة المصطفى ﷺ عالميّةٌ منذ فجرها على نحو ما صرّحت هذه السّورة الكريمة فلم يتأخّر فى القرآن الكريم الحديث المستفيض عن بنى إسرائيل حتّى احتكاك المصطفى ﷺ مباشرةً بهم بعد الهجرة إلى المدينة المنوّرة وبذلك لا مجال لقول أيّ مغرضٍ إنّ رسالة الإسلام ليست عالميّةً منذ فجرها وإنّ حديث القرآن عن بنى إسرائيل نتيجة الاحتكاك بهم فى المدينة المنوّرة بعد الهجرة على جهة الخصوص . وإنّ هذا الهدف من قصّ القرآن الكريم على المصطفى ﷺ من أنباء الرّسل قد نصّت عليه هذه الآية الكريمة من سورة هود[1] قال تعالى : ﴿ وكلاًّ نقصّ عليك من أنباء الرّسل ما نثبّت به فؤادك وجاءك فى هذه الحقُّ وموعظةٌ وذكرى للمؤمنين ﴾ .

---

(١) الآيـــة ١٢٠ .

[١٤]

« بنو إسرائيل يسألون موسى عليه السّلام الإذن لهم بعبادة الأصنام والإنكار عليهم »

الآيـــات (١٣٨ ـ ١٤١)

وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ
أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ
قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ
مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا
وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم
مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ
أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن
رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾

تدور آيات القسم الأربع حول مقابلة بنى إسرائيل نعم الله تعالى عليهم بالكفران سريعاً . إنّهم بعد أن أغرق الله تعالى فرعون وملأه فى اليمّ وبمجرّد عبورهم البحر وإتيانهم على قومٍ مشركين مجتهدين فى عبادة أصنامٍ لهم قالوا لموسى عليه السّلام : ﴿ اجْعل لنا إلهًا كما لهم آلهة ﴾ وكان جواب موسى عليه السّلام عليهم عنيفًا : ﴿ قال إنّكم قومٌ تجهلون ﴾ إنّهم يجهلون حقّ الله تعالى عليهم بتوحيده ، وإنّهم قومٌ سفهاء حمقى . أمّا القوم المشركون فإنّ حقّهم وحقّ أصنامهم الهلاك والتّكسير وإنّ كلّ أعمالهم باطلة وقد جعل الله تعالى ما ظاهره الصّلاح منها هباءً منثورا . وفى أسلوب الفصل يتحدّث موسى عليه السّلام عن قضيّة التّوحيد المهمّة : ﴿ قال أغير الله أبغيكم إلهًا وهو فضّلكم على العالمين ﴾ إنّه عليه السّلام ينكر فى أسلوب الاستفهام على قومه أن يطلبوا منه عليه الصّلاة والسّلام المساعدة على البغي والظّلم وأشدّ أنواع الفساد ! أن يبغي لهم إلهًا غير الله تعالى وأن يطلب لهمَ معبودًا سوى ربّ العالمين . ومن الّذين يبغون ذلك ؟ إنّهم بنو إسرائيل الّذين فضّلهم الله تعالى على عالمي زمانهم . وممّن يطلبون المساعدة على أكبر أنواع البغي والفساد ؟ من

رسول الله تعالى الّذى لا يزال يعيش بين ظهرانيهم ! ومتى ؟ بعد أن نجّاهم الله تعالى من فرعون وآله وأغرق فرعون وآله ومنذ أن وطئت أقدامهم برّ الأمان بإذن الله تعالى . وتجاه مقابلة بنى إسرائيل نعم الله تعالى عليهم بالكفران تذكّرهم آخر آيات القسم بإنجاء الله تعالى لهم من آل فرعون الّذين ألزموهم أشدّ أنواع العذاب وأشقّها بتقتيل الأبناء وإستحياء البنات . إنّ فى ذلك بلاءً عظيمًا من الله تعالى لبنى إسرائيل واختبارًا شديداً . إنّ على بنى إسرائيل أن يقابلوا نعمة الله تعالى عليهم بالشّكران لا بالكفران .

الآيـــة رقـــم (١٣٨)

قال تعالى : ﴿ وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر فأتَوْا على قومٍ يعكُفون على أصنامٍ لهم . قالوا يا موسى اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة . قال إنّكم قومٌ تجهلون ﴾ .

حينما شكا بنو إسرائيل لموسى عليه السّلام سَوْمَ فرعون لهم سوء العذاب جاء ردًّا عليهم القول على لسانه عليه السّلام فى الآيةُ الكريمة التّاسعة والعشرين بعد المائة: ﴿ عسى ربّكم أن يهلك عدوّكم ويستخلفكم فى الأرض فينظر كيف تعملون ﴾ وإنّ ربّ العزّة ليهلك فرعون وملأه فى البحر المالح غرقًا وينجىّ موسى عليه السّلام وبنى إسرائيل من فرعون وملئه ومن البحر المتلاطم الأمواج . وقد جاء فى سورة الشّعراء[1] القول : ﴿ فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كلّ فِرْقٍ كالطّود العظيم . وأزلفنا ثَمّ الآخَرين . وأنجينا موسى ومن معه أجمعين . ثمّ أغرقنا الآخَرين ﴾ وبما أنّ ربّ العزّة قد استخلف بنى إسرائيل فى الأرض فقد كان المنتظر منهم أن يقابلوا النّعمة بالشُّكران وليس بالكفران . وإنّ

---

(١) الآيات ٦٣ ـ ٦٦ .

الآية الكريمة الّتى نحن بصددها تبيّن أنّ بنى إسرائيل قد قابلوا نعمة الله تعالى عليهم بأشدّ أنواع الكفران فقد كانوا مستعدّين لأن يرتكبوا الذّنب الّذى لا يغفره الله تعالى وهو الإشراك مع الله تعالى سواه . ومتى كان الاستعداد من بنى إسرائيل لأن يرتكبوا هذا الذّنب ؟ من اللّحظة الّتى وطئت فيها أقدامهم برّ الأمان بإذن الله تعالى. والدّليل على هذا الاستعداد المبكّر للتّورّط فى الشّرك مجىء الفاء العاطفة الّتى تدلّ على التّرتيب مع التّعقيب فى القول : ﴿ وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر فأتوا على قومٍ يعكفون على أصنامٍ لهم ﴾ والمعنى : وعبرنا ببنى إسرائيل البحر الأحمر فأتوا فورًا على قومٍ يعكفون على أصنامهم لهم ، فهم يقبلون عليها بحماس ، ويلازمونها بصبر ، ويعبدونها باجتهاد[1] والحقيقة أنّ القول : ﴿ فأتوا ﴾ يصحّ أن ننظر إليه من جهتين اثنتين . الفاء العاطفة وقد تبيّنا دورها فى الجملة . وجملة : ﴿ أتوا ﴾ الّتى نودّ أن نتحدّث عنها هنا .

لقد تبيّنا من الآيات الكريمات الّتى جمعت فى هذه السّورة الكريمة فى حيّزٍ واحد جملتيّ ﴿ جاء ﴾ و﴿ أتى ﴾ أنّ جملة ﴿ جاء ﴾ تدلّ على القرب والمجىء الفعليّ أو الوصول وأنّ جملة ﴿ أتى ﴾ تدلّ على البعد . وأقرب الأدلّة على ذلك ما جاء فى الاية الكريمة التّاسعة والعشرين بعد المائة . قال تعالى : ﴿ قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا ﴾ فى ضوء هذه الملاحظة سوف ننظر إلى جملة ﴿ فَأَتَوْا ﴾ وهذا يقتضينا النّظر إلى الجملة فى ضوء ما سبقها على جهة الخصوص . قال تعالى : ﴿ وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر فأَتَوْا على قومٍ يعكُفون على أصنامٍ لهم ﴾ إنّ لفظة البحر تعنى فى الأصل كلّ مكانٍ واسعٍ جامعٍ للماء الكثير[2] والماء هنا هو الماء المِلْح. والبحر هنا هو البحر الأحمر أو بحر القُلْزُم . ونستطيع أن نفهم غزارة الماء وكثرته وسعة المكان وعمق البحر من العديد من الآيات الكريمات . ومن ذلك قوله

---

(١) انظر هنا مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « عكف » ٣٤٢ .

(٢) انظر هنا مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « بحر » ٣٧ .

تعالى في سورة الشّعراء[١] : ﴿ فأتبعوهم مشرقين . فلمّا تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنّا لمدركون . قال كلاّ إنّ معي ربّي سيهدين . فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كلّ فِرْقٍ كالطّود العظيم . وأزلفنا ثَمَّ الآخَرين . وأنجينا موسى ومن معه أجمعين . ثمّ أغرقنا الآخَرين ﴾ إنّ موسى عليه السّلام حينما ضرب البحر بعصاه امتثالاً لأمر الله تعالى انفلق اثني عشر فِرْقًا بعدد أسباط بني إسرائيل . والفِرْق : القطعة المنفصلة[٢] إنّ كلّ فِرْق كان من حيث الضّخامة كالجبل الضّخم بينها مسالك سلكوها[٣] ووصفه بالعظم لكونه فيما بين الأطواد عظيمًا لا لكونه عظيمًا فيما بين سائر الجبال[٤] وجاء في سورة الدّخان[٥] خطابًا لموسى عليه السّلام قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿ فأسر بعبادي ليلاً إنّكم متّبعون. واترك البحر رهوًا إنّهم جندٌ مغرقون ﴾ والرّهو الطّريق الواسع المستوى . يقال لكلّ حَوْمةٍ مستويةٍ يجتمع فيها الماء رَهْو[٦] فثمّة المسالك المتعدّدة الواسعة ، وثمّة القطع المنفصلة بينها والّتي تشبه الواحدة منها أشدّ الجبال ضخامة . وبعد أن أنجى الله تعالى موسى ومن معه أجمعين أغرق جلّ وعلا فرعون ومن معه أجمعين . وفي غرق الجميع دليلٌ على عمق الموضع وسعة البحر وكثرة الماء ، خاصّة وأنّ جملة : ﴿ وجاوزنا ﴾ من الجَوْز بمعنى الوَسَط[٧] .

إنّ هذه المعاني كلّها توحي بأنّ المكان الّذي عبره موسى عليه السّلام وملؤه كان واسعًا . وتنبيهًا على هذه السّعة جاء في هذه الآية الكريمة الّتي نحن بصددها جملة : ﴿ فَأَتَوْا ﴾ وبذلك تدلّ الجملة على البعد المكانيّ من ناحيةٍ ، وتدلّ الفاء من ناحيةٍ أخرى على قرب العاكفين على الأصنام من البحر بحيث إنّ موسى عليه السّلام

---

(١) الآيات ٦٠ ـ ٦٦ .
(٢) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « فرق » ٣٧٧ .
(٣) الجلالين . (٤) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « طود » ٣٠٩ .
(٥) الآية ٢٣ و٢٤ . (٦) انظر مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « رهو » ٢٠٥ .
(٧) انظر مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « حوز » ١٠٣ .

وقومه بمجرّد وصولهم إلى برّ الأمان وشاطئ السّلامة صادفوا القوم الّذين كانوا يعبدون الأصنام . وصدق من قال إنّ بنى إسرائيل قبل أن تجفّ أقدامهم من ماء البحر - إن كان ثمّة فى الطّريق اليابس ماء - طلبوا من موسى عليه السّلام أن يجعل لهم آلهةً من الأصنام على غرار عابدى الأصنام الّذين صادفوهم أمامهم عند خروجهم من البحر .

ويصف موسى عليه السّلام قومه عليه السّلام الّذين يستأذنونه فى عبادة الأصنام، وهو عليه السّلام الّذي يدعوهم إلى إفراد الله تعالى بالعبادة يصفهم عليه السّلام بالجهل . والجهل له معنيان سيّئان تحقّقا فى القوم . الجهل ضدّ العلم . فهؤلاء لا يعلمون حقّ الله تعالى عليهم من وجوب توحيده جلّ وعلا . والجهل ضدّ الحِلْم . فهؤلاء الحمقى السّفهاء يطلبون من رسول ربّ العالمين إليهم أن يأذن لهم فى عبادة الأصنام ! إنّهم حقًّا قومٌ يجهلون . وإذا كان بنو إسرائيل قومًا يجهلون فإنّ عابدي الأصنام أسوأ حالاً ومآلاً وقد تحدّثت عن هؤلاء المشركين .

الآيــة رقــم (١٣٩)

قال تعالى : ﴿ إنّ هؤلاء متبّرٌ ما هم فيه وباطلٌ ما كانوا يعملون ﴾ .

والآية الكريمة تتألّف من شقّين . الشّقّ الأوّل : ﴿ إنّ هؤلاء متبّرٌ ما هم فيه ﴾ وهو يتحدّث عن حاضر القوم المؤلم . والشّقّ الآخر : ﴿ وباطلٌ ما كانوا يعملون ﴾ وهو يتحدّث عن ماضى القوم المؤسف . وإنّ أهمّ ما يلفت النّظر بشأن الشّقّ الأوّل القول : ﴿ متبّرٌ ﴾ بمعنى هالك[1] وحينما نظر إلى المعنى الّذى تدور حوله المادّة الأصليّة : « تبر » نتبيّن أنّه التّكسير والهلاك . فالتّبر الفُتات من الذّهب قبل أن يصاغ ويُسْتَعْمَل . قال ابن جنّى : لا يقال له تِبر حتّى يكون فى تراب معدنه أو

(١) تفسير ابن كثير ٢ / ٢٤٣ .

مكسورًا . والتّبار : الهلاك . وتبّره تتبيرًا أي كسّره وأهلكه . وهؤلاء متبَّرٌ ما هم فيه أي مكسَّرٌ مُهْلَكٌ[1] ما أبلغ القول : ﴿ إنّ هؤلاء متبّرٌ ما هم فيه ﴾ وما أعظم دور لفظة ﴿ متبّر ﴾ ذات الدّلالة على الهلاك الّذى هو من نصيب العابدين ، وعلى التّكسير الّذي هو من نصيب الأصنام المصنوعة من الحجارة وما فى حكمها . ولا نكاد نجد اللّفظة الأخرى الّتى تؤدّي هذين المعنيين معًا فى هذا الموضع .

أمّا الشّقّ الآخر : ﴿ وباطلٌ ما كانوا يعملون ﴾ فإنّه يؤدّى معنى هذه الآية الكريمة من سورة الفرقان[2] : ﴿ وقَدِمْنا إلى ما عملوا من عملٍ فجعلناه هباءً منثورا ﴾.

وبعد أن نبّه موسى عليه السّلام قومه إلى الخطأ الّذى كادوا يرتكبونه والذّنب العظيم الّذى كادوا يأتونه ، وبعد أن بيّن عليه السّلام سوء حال المشركين ومآلهم إن لم يتوبوا إلى الله تعالى توبةً نصوحًا تحدّث عن الرّسالة الّتى ائتمنه الله تعالى عليها فإلى .

الآيـــة رقـــم (١٤٠)

قال تعالى : ﴿ قال أغير الله أبغيكم إلهًا وهو فضّلكم على العالمين ﴾

وإنّ أوّل ما يلفت النّظر فى الآية الكريمة روعة الفصل : ﴿ قال أغير الله أبغيكم إلهًا ﴾ إنّ الحديث عن البشر انتهى بنهاية الآية الكريمة السّابقة . وإنّ الحديث عن رسالة التّوحيد الّتى أرسله الله تعالى بها وائتمنه عليها مستقلّ وجديد ولهذا لم نكن بصدد أسلوب الوصل ، فلم يأت مثلاً القول : « وقال .... » إنّما نحن بصدد أسلوب الفصل لأنّ قضيّة التّوحيد غير قضايا البشر المشركين والّذين أوشكوا أن

---

(١) لسان العرب : « تبر » وانظر مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « تبر » ٧٢ ومعجم مقاييس اللّغة : « تبر » ١ / ٣٦٢ وتفسير الطّبريّ ٩ / ٣٢ .

(٢) الآية ٢٣ .

يلحقوا بهم. وإذا كان ثمّة حديثٌ عن البشر بعد ذلك فمن زاوية التّوحيد ومن أجله. وإنّ أسلوب الفصل هنا يشعر بأهمّيّة القضيّة الّتى تتحدّث عنها الآية الكريمة وينبّه إلى أنّ الحديث عن البشر إنّما تقدّم لأنّ بلاغة الكلام تقتضى ذلك فهم يريدون أن يرتكبوا أكبر الذّنوب فوجب منعهم والأخذ بحُجُزاتهم عن النّار .

إنّ موسى عليه السّلام فى ثورته العارمة على قومه الّذين أرادوا أن يشركوا الأصنام مع الله تعالى فى العبادة يسألهم فى إنكار : أغير الله تعالى أبغي لكم إلهًا[1] وهو جلّ وعلا فضّلكم على عالمي زمانكم . أهذا الّذى يُنتظَر من الّذين أنجاهم من فرعون عدو الله تعالى وعدوّهم ! أليس جزاء الإحسان الإحسان ! ولماذا يبادر بنو إسرائيل إلى مقابلة إحسان الله تعالى إليهم بالكفران وليس الشّكران ! وإليك هذا النّصّ البليغ فى لسان العرب[2] : « يقال : ابْغنى كذا بهمزة الوصل أي اطلب لى . وأبغنى بهمزة القطع أي أعنّى على الطّلب » إنّ ثورة موسى عليه السّلام من الطّبيعيّ أن تكون عارمةً على قومه الّذين يطلبون منه عليه السّلام أن يساعدهم على البغي بمعنى الظّلم[3] وتجاوز الحدّ فى الفساد ![4] إنّ الّذين يطلبون من رسول الله تعالى إليهم أن يعينهم على الشّرك الغاية فى الجهل والحمق والسّفه .

وإنّ الإشارة إلى تفضيلهم على عالمى زمانهم تذكّرنا باختيار الله تعالى بنى إسرائيل على عالمى زمانهم أيضًا فى قول الحقّ جلّ وعلا[5] : ﴿ ولقد نجّينا بنى إسرائيل من العذاب المهين . من فرعون إنّه كان عاليًا من المسرفين . ولقد اخترناهم على علمٍ على العالمين . وآتيناهم من الآيات ما فيه بلاءٌ مبين ﴾ كما تذكّرنا بالإشارة إلى تفضيلهم على عالمى زمانهم فى قول الحقّ جلّ وعلا[6] : ﴿ ولقد آتينا بنى إسرائيل الكتاب والحكم والنّبوّة ورزقناهم من الطّيّبات وفضّلناهم على العالمين ﴾.

---

(١) انظر اللّسان : « بغى » والجدول فى إعراب القرآ وصرفه ٥٨/٥ .
(٢) اللّسان : « بغى » (٣) اللّسان : « بغى » .
(٤) انظر مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « بغى » ٥٥. (٥) سورة الدّخان ٣١ ـ ٣٣ .
(٦) سورة الجاثية ١٦ .

وإنّ ما فهمناه من إنكار موسى عليه السّلام على بنى إسرائيل مقابلة إحسان الله تعالى لهم بكفران النّعم تصرّح به .

الآيـــة رقـــم (١٤١)

قال تعالى : ﴿ وإذ أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يقتّلون أبناءكم ويستحيون نساءكم . وفى ذلكم بلاءٌ من ربّكم عظيم ﴾ .

إنّ الآية الكريمة تذكّرنا بالقول على لسان فرعون فى هذه السّورة الكريمة[1] : ﴿ قال سنقتّل أبناءهم ونستحيي نساءهم وإنّا فوقهم قاهرون ﴾ كما أنّ وجه الشّبه كبيرٌ بين الآية الكريمة هنا وبين الآية الكريمة التّاسعة والأربعين من سورة البقرة . قال تعالى : ﴿ وإذ نجّيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبّحون أبناءكم ويستحيون نساءكم . وفى ذلكم بلاءٌ من ربّكم عظيم ﴾ وبين هاتين الآيتين الكريمتين وهذه الآية الكريمة من سورة إبراهيم[2] شبهٌ واضح . قال تعالى : ﴿ وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم إذ أنجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ويذبّحون أبناءكم ويستحيون نساءكم . وفى ذلكم بلاءٌ من ربّكم عظيم ﴾ وفى أثناء دراستنا المتأمّلة للآية الكريمة من سورة البقرة[3] أشرنا فى شىءٍ من التّفصيل لمعانى مفرداتها الّتى تتّفق كثيرًا مع مفردات آية سورة الأعراف . وإذا كان قد جاء فى آية سورة البقرة القول : ﴿ وإذ نجّيناكم ﴾ بتضعيف الفعل فإنّ الهمزة تقابل التّضعيف فى آية سورة الأعراف : ﴿ وإذ أنجيناكم ﴾ وإذا كان قد جاء فى آية سورة البقرة القول : ﴿ يذبّحون أبناءكم ﴾ والذّبح يكون فى العادة من أمام الرّقبة فإنّ فى آية سورة الأعراف قد جاء القول : ﴿ يقتّلون أبناءكم ﴾ والقتل لفظٌ عامٌّ يشمل الذّبح من خلف الرّقبة أساسًا والذّبح من أمامها والقتل فى أيّ صورةٍ من

---

(١) الآيـة ١٢٧ . (٢) الآية ٦ .

(٣) تأمّلات فى سورة البقرة ١ / ٣١٤ ـ ٣١٩ .

صور العذاب . وقد ألمحت آية سورة إبراهيم في القول : ﴿ يسومونكم سوء العذاب ويذبّحون أبناءكم ﴾ إلى سوء العذاب المختلف الصّور ، وإلى تذبيح الأبناء. وبذلك نكون أمام صورٍ مختلفة من العذاب والذّبح والقتل .

ومعنى الآية الكريمة من سورة الأعراف بإيجاز : واذكروا يا بني إسرائيل نعمتنا عليكم إذ أنجيناكم من آل فرعون الّذين يرون رأيه ويعملون عمله ويسومونكم سوء العذاب ويلزمونكم أشدّه وأشقّه يقتّلون أبناءكم الذّكور ويبقون بناتكم أحياء من أجل غاياتهم الخسيسة حينما يَكْبَرْن ويصرن نساءً . إنّ في ذلك العذاب بلاءً من ربّكم عظيمًا واختبارًا شديدًا لكم[1] إنّ واجبكم يا بني إسرائيل أن تقابلوا النّعمة بالشّكران وليس بالكفران .

---

(١) انظر مثلاً تفسير ابن عطيّة ٦ / ٦٣ .

[١٥]

« مجيء موسى عليه السّلام لميقات ربّه واصطفاؤه بالرّسالة وبالكلام »

الآيـــات (١٤٢ ـ ١٤٧)

وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً
وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ
مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ
سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ
رَبُّهُۥ ۚ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ
إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ
رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ
قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾
قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى
فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا
لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ
شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُورِيكُمْ
دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ
فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟
بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟
سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا
وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ
ٱلْءَاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟
يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾

بعد أن نجّى الله تعالى موسى عليه السّلام وقومه من فرعون وآله الّذين أغرقهم الله تعالى فى اليمّ وبعد أن عبر موسى عليه السّلام وبنو إسرائيل البحر ووصلوا إلى شبه جزيرة سيناء واعد الله سبحانه وتعالى موسى عليه السّلام أربعين ليلةً يصومها ويقومها ويكلّمه بعدها . وحينما همّ موسى عليه السّلام بالذّهاب إلى ميقات ربّه جلّ وعلا قال لشقيقه هارون عليه السّلام : ﴿ اخْلُفْنى فى قومى وأصلح ولا تتّبع سبيل المفسدين ﴾ وبهذا تفيد الواو من القول : ﴿ وقال موسى لأخيه هارون ﴾ تفيد مطلق الجمع لأنّ هذا القول من موسى عليه السّلام سابقٌ لذهابه عليه السّلام إلى ميقات ربّه جلّ وعلا . وصام موسى عليه السّلام الثّلاثين ليلةً وقامها وحينما أنكر خُلوف فمه استاك فأمره الله تعالى بصيام عشر ليالٍ أُخَر يكلّمه جلّ وعلا إثرها بخلوف فمه لأنّ رائحة خلوف فم الصّائم أطيب عند الله تعالى من رائحة المسك . أمّا الثّلاثون يومًا فشهر ذى القعدة ، وأمّا العشر فعشر ذى الحجّة فيما يقال والله أعلم . ولمّا كان ربّ العزّة قد أكرم موسى عليه السّلام بأن كلّمه جلّ وعلا بلا واسطةٍ كلامًا سمعه عليه السّلام من كلّ جهةٍ فقد أغراه عليه السّلام فضل مولاه جلّ وعلا عليه بالكلام بأن طلب المزيد من الفضل بأن يريه جلّ وعلا نفسه فينظر إليه جلّ وعلا ويراه . وإنّ القول على لسان موسى عليه السّلام : ﴿ ربّ أرنى أنظر إليك ﴾ ، يمثّل الخلق العظيم الّذى فطر الله تعالى عليه أنبياءه ورسله عليهم جميعًا صلوات الله وسلامه ومعرفة كلّ واحدٍ منهم حقيقة قدره فهو واحدٌ من عباد الله تعالى الّذين أنعم الله تعالى عليهم بأعظم النّعم النّبوّة والرّسالة . إنّ موسى عليه السّلام ينادى ربّه جلّ وعلا ويسأله أن يريه جلّ وعلا نفسه كي ينظر إليه . والمعروف أنّ النّظر إلى الشّىء لا يعنى الرّؤية فقد تتحقّق الرّؤية وقد لا تتحقّق. وهكذا يقف موسى عليه السّلام عند مجرّد النّظر إلى المنظور فى حالة الاستجابة لطلب الرّؤية . ويكون الجواب من الحقّ جلّ وعلا لموسى عليه السّلام :

﴿ لن ترانى﴾ والمعنى لن تراني يا موسى فى هذه الحياة الدّنيا . وفضلاً من ربّ العزّة على موسى عليه السّلام يبيّن ربّ العزّة الحكمة من نفي إمكانيّة الرّؤية فيأمر موسى عليه السّلام أن ينظر إلى الجبل الأشدّ قوّةً وضخامةً منه عليه السّلام فإن استقرّ مكانه فذلك مظنّة احتمال موسى عليه السّلام رؤية ربّه جلّ وعلا : ﴿ فلمّا تجلّى ربّه للجبل جعله دكًّا وخر موسى صعقًا ﴾ ولمّا ظهر من نوره جلّ وعلا قدر نصف أنملة الخنصر جعل الجبل مستويًا بالأرض وسقط موسى عليه السّلام مغشيًّا عليه لهول ما رأى. فلمّا أفاق عليه السّلام نزّه الله تعالى عن أن يراه أحدٌ فى هذه الحياة الأولى إلاّ هلك وأعلن توبته من طلب الرّؤية فى الحياة الدّنيا وأعلن عليه السّلام أنّه أوّل المؤمنين بأنّه جلّ وعلا لا يُرَى فى الحياة الأولى . وإنّ ربّ العزّة الّذى حجب الرّؤية عن موسى عليه السّلام يكرمه بالعديد من النّعم منها اصطفاؤه على النّاس فى زمانه عليه السّلام بالرّسالة وبالكلام وبالوحي وبالتّوراة فعلى موسى عليه السّلام أن يشكر لله تعالى نعمه وآلاءه . وقد كتب الله تعالى لموسى عليه السّلام فى ألواح التّوراة الّتى نزلت جملةً واحدةً من كلّ شيءٍ موعظةً ترقّ لها القلوب ، وتفصيلاً لكلّ شيءٍ فى مجال الحلال والحرام والأحكام . ويأمر الله تعالىموسى عليه السّلام أن يأخذ التّوراة بجدٍّ واجتهاد فهو عليه السّلام أحد أولى العزم من الرّسل ، ويأمر بنى إسرائيل أن يأخذوا بأحسنها فى حال التّخيير ووراء ذلك عليهم أن يأخذوا كلّ شيءٍ بجدٍّ واجتهاد . ولمّا كان بنو إسرائيل متّجهين إلى أرض الشّام فإنّ السّياق يقرّر أنّ ربّ العزّة سيُرى بنى إسرائيل دار الفاسقين هنالك. وفى مقابل الانصراف عن آيات الله تعالى سيصرف الله تعالى عنها أولئك الّذين يتكبّرون فى الأرض بغير الحقّ ويجحدون كلّ آية ويفضّلون طريق الغيّ على طريق الرّشاد بسبب تكذيبهم بآيات الله تعالى وغفلتهم عنها . إنّ جزاء الّذين يكذّبون بالله تعالى وباليوم الآخر أن تحبط أعمالهم وأن ينالوا الجزاء الّذى يستحقّون يوم القيامة على أعمالهم السّيّئة .

الآيـــة رقـــم (١٤٢)

قال تعالى : ﴿ وواعدنا موسى ثلاثين ليلةً وأتممناها بعشرٍ فتمّ ميقات ربّه أربعين ليلة . وقال موسى لأخيه هارون اخلفني في قومي وأصلح ولا تتّبع سبيل المفسدين﴾ .

واعد الله سبحانه وتعالى موسى عليه السّلام ثلاثين ليلةً يصوم نهارها ، ويلحق بصيام النّهار قيام اللّيل ، ففعل عليه السّلام ذلك سعيًا وراء مواعدة الله تعالى إياه بكلامه جلّ وعلا له عند انتهائها . وحينما وجد عليه السّلام رائحة خُلوف فمه استاك . ولمّا كانت رائحة خُلوف فم الصّائم أطيب عند الله تعالى من رائحة المسك وكان السّواك ذهب بتلك الرّائحة فقد أُمِرَ عليه الصّلاة والسّلام أن يصوم عشر ليالٍ أُخَر . ويقال إنّ الثّلاثين يومًا هي شهر ذي القعدة . ويقال إنّ العشر بعد ذلك هي عشر ذي الحجّة . والله تعالى أعلم . وإنّ جملة : ﴿ وأتممناها ﴾ تنبّه إلى أنّ تمام الكمال قد تحقّق بصيام اللّيالي العشر ، وتذكّر بمثل قول الحقّ جلّ وعلا[1] : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينًا ﴾ وبتمام موسى عليه السّلام صيام اللّيالي العشر وقيامها تمّ وقت وعد ربّه جلّ وعلا له بكلامه له بعد الأربعين ليلة[2] ويلاحظ الإشارة مرّةً أخرى إلى التّمام في القول : ﴿ فتمّ ميقات ربّه ﴾ كما يلحظ استعمال لفظة : ﴿ ليلة ﴾ جريًا على عادة العرب في إطلاق لفظة اللّيلة في مثل هذه المناسبة على اليوم لاعتمادهم على اللّيل في تحرّكاتهم وفي الكثير من شئونهم بسبب الصّفاء الغالب على سمائهم . إنّ القرآن الكريم هو الكتاب العزيز الّذي نزل بلسانٍ عربيٍّ مبين .

---

(١) سورة المائدة ٣ .

(٢) انظر مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « وقت » ٥٢٩ .

وحينما ذهب موسى عليه السّلام إلى ميقات ربّه جلّ وعلا قال لأخيه هارون عليه السّلام كن خليفتى فى قومى . وممّا يلفت النّظر القول على لسان موسى عليه السّلام : ﴿ قومى ﴾ إنّه عليه السّلام يهتمّ لبنى إسرائيل قومه الّذين أرسله الله تعالى إليهم فى حال وجوده عليه السّلام بينهم وفى حال غيابه عنهم . وها هو ذا عليه السّلام يأمر شقيقه وابن أمّه وأبيه هارون عليه السّلام بأن يخلفه فى قومه . ومع أنّ هارون عليه السّلام واحدٌ من المصطفَيْن الأخيار وقد قال عزّ من قائل فى سورة مريم[1] : ﴿ واذكر فى الكتاب موسى إنّه كان مخلَصًا وكان رسولاً نبيًّا . وناديناه من جانب الطّور الأيمن وقرّبناه نجيًّا . ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيًّا ﴾ فإنّه عليه السّلام يأمره بأن يصلح : ﴿ وأصلح ﴾ وفى الأمر بالإصلاح نهيٌ ضمنيٌّ عن الإفساد . ولمّا كان النّبيّ معصومًا بفضل الله تعالى فإنّ موسى عليه السّلام يزيد الأمر بالإصلاح بيانًا فى القول على لسانه عليه الصّلاة والسّلام : ﴿ ولا تتّبع سبيل المفسدين ﴾ إنّ من يفسد من بنى إسرائيل أو يريد الإفساد لا على هارون عليه السّلام ألاّ يتّبع سبيله من ناحية وأن يضرب على يديه بيدٍ من حديدٍ وألاّ تأخذه فى الله تعالى وفى الحقّ لومة لائم من ناحيةٍ أخرى . وإنّ فضل الله تعالى على موسى عليه السّلام بالكلام أغراه بطلب الرّؤية فإلى .

الآيــة رقــم (١٤٣)

قال تعالى : ﴿ ولمّا جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربّه قال ربّ أرنى أنظر إليك . قل لن ترانى ولكن انظر إلى الجبل فإن استقرّ مكانه فسوف ترانى . فلمّا تجلّى ربّه للجبل جعله دكًّا وخرّ موسى صعقًا . فلمّا أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أوّل المؤمنين ﴾ .

---

(١) الآيات ٥١ ـ ٥٣ .

لمّا جاء موسى عليه السّلام لوقت وعد الله تعالى بكلامه إيّاه وذلك بعد أن تمّ ميقات ربّه جلّ وعلا أربعين ليلةً صام عليه السّلام نهارها وقام ليلها ، وكلّمه ربّه جلّ وعلا بلا واسطةٍ كلامًا سمعه من كلّ جهة[١] قال موسى عليه السّلام : ﴿ ربّ أرنى أنظر إليك ﴾ .

وبشأن جملة جاء في القول : ﴿ ولمّا جاء موسى لميقاتنا ﴾ يُفْهَم منها مجيء موسى عليه السّلام فعلاً ووصوله وانتهاؤه إلى الميقات .

وبشأن الميقات في القول : ﴿ ولمّا جاء موسى لميقاتنا ﴾ يصحّ أن يفهم منه الوقت الّذى عُيِّنَ له عليه السّلام ، كما يصحّ أن يُفْهَم أيضًا المكان الّذى حُدّد له عليه السّلام . يقول الرّاغب[٢] : « والميقات الوقت المضروب للشّيء والوعد الّذى جُعِل له وقت .... وقد يقال الميقات للمكان الّذى يُجْعَل وقتًا للشّيء كميقات الحجّ » ويقول ابن عطيّة[٣] : « ثمّ أخبر الله تبارك وتعالى عن موسى عليه السّلام أنّه لمّا جاء إلى الموضع الّذى حُدِّد له ، وفى الوقت الّذى عُيّن له » والمظنون أنّ موسى عليه السّلام صام الأربعين ليلةً وقامها بعد أن ترك أخاه هارون عليه السّلام يخلفه على قومه وفى تلك الأثناء عبد بنو إسرائيل العجل رغم نهي هارون عليه السّلام لهم عن ذلك ، على نحو ما يفهم من الكثير من الآيات الكريمات ومنها قوله تعالى في سورة البقرة[٤] : ﴿ وإذ واعدنا موسى أربعين ليلةً ثمّ اتّخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون ﴾ ومنها قوله تعالى في سورة طه[٥] : ﴿ وما أعجلك عن قومك يا موسى . قال هم أولاء على أثرى وعجلت إليك ربّ لترْضَى . قال فإنّا قد فتنّا قومك من بعدك وأضلّهم السّامريّ ﴾ ومنها قوله تعالى في سورة الأعراف[٦] هذه : ﴿ واتّخذ قوم موسى من بعده من حليّهم عِجْلاً جسدًا له خُوار . ألم يَرَوْا أنّه لا يكلّمهم ولا يهديهم سبيلاً . اتّخذوه وكانوا ظالمين ﴾ .

---

(١) الجلالين .
(٢) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « وقت » ٥٢٩ .
(٣) تفسير ابن عطيّة ٦ / ٦٦ .
(٤) الآية ٥١ .
(٥) الآيات ٨٣ ـ ٨٥ .
(٦) الآية ١٤٨ .

وتجيء لفظ الرّبّ مرّتين اثنتين فى القول : ﴿ ولمّا جاء موسى لميقاتنا وكلّمه ربّه قال ربّ أرنى أنظر إليك ﴾ والمعروف أنّ لفظ الرّبّ يرتبط استعماله فى القرآن الكريم بالخصوص ، وبالتّنبيه إلى تربية الله تعالى عباده بالنّعم والآلاء ، ووجوب الشّكر عليها ، وبالتّنبيه إلى جوّ الرّضا والامتنان والبهجة والسّرور الّذى يتضوّع شذاه . إنّ هذه بعض المعانى الّتى نتبيّنها من مجيء لفظ الرّبّ مرّتين اثنتين ، ذلك اللّفظ الحبيب إلى كلّ نفسٍ مؤمنةٍ مطمئنّة ، فهي تهتف به من أعماقها ، ويسيل رقّةً وعذوبةً بين شفتي صاحبها .

وتتأكد دلالة لفظة الرّبّ على الخصوص فى القول : ﴿ وكلّمه ربّه ﴾ حينما نتبيّن أنّ ربّ العزّة اختصّ موسى عليه السّلام بالكلام . قال تعالى[1] : ﴿ وكلّم الله موسى تكليمًا ﴾ هذا إلى عودة ضمير المفرد الغائب فى الموضعين إلى موسى عليه السّلام : ﴿ وكلّمه ربّه ﴾ فالّذى كلّم موسى عليه السّلام ربّه جلّ وعلا الّذى ربّاه بنعمه وآلائه . وينبغى أن يكون لضمير المفرد الغائب العائد إلى موسى عليه السّلام فى القول : ﴿ ربّه ﴾ كبير الفضل فى الدّلالة على الامتنان الّذى ليس عليه من مزيد من العبد المصطفى موسى عليه السّلام لمولاه جلّ وعلا ربّ العالمين الّذى اصطفاه بالكلام دون سائر النّبيّين والمرسلين .

وبشأن القول : ﴿ ربّ أرنى أنظر إليك ﴾ نحن بحاجةٍ إلى تبيين المراحل الّتى تمّر بها عمليّة الإبصار حتّى ينتهى الأمر إلى الغاية البعيدة وهي رؤية المرئيّ إن كانت الرّؤية ممكنةً فى حقّه . فما معنى القول على لسان موسى عليه السّلام : ﴿ ربّ أرنى أنظر إليك ﴾ ؟ المعنى : ربّ أرنى نفسك أنظر إليك[2] .

ومن البيّن أنّنا فى الجزئيّة الكريمة أمام الرّؤية والنّظر إلى المرئيّ . والمعروف أنّ عمليّة الرّؤية كي تتمّ هي بحاجةٍ إلى الجارحة الّتى تعمل . والجارحة هنا أو الحاسّة

---

(١) سورة النّساء ١٦٤ .

(٢) انظر الجلالين والكشّاف ٥٧٣/١ وتفسير ابن عطيّة ٦٧/٦ والبحر المحيط ٣٨٢/٤ .

هى العين . وعملها الإبصار حينما تتحقّق شروطه . والمعروف أنّ العين تنظر إلى الشّىء سواءٌ أدركته أو لم تدركه ، أبصرته أو لم تبصره . فإن لم تدركه و لم تبصره قيل : نظرت العين إلى الشّىء . وإن أدركته وأبصرته قيل : نظرت العين فى الشّىء. والمعروف أنّ العين النّاظرة أو الباصرة تستطيع أن تبصر الشّىء فى مجال المحسوسات حينما ينعكس ضوء الشّىء المرئيّ على العين فتحوّله إلى صورة . فإذا لم يكن ثمّة الضّوء الّذى ينعكس أو النّور لا ترى العين شيئًا ولهذا لا تبصر العينان فى الظّلام . وحينما تتحقّق فى العين القوّة المبصرة وفى المرئيّ بشأن المحسوسات الضّوء الّذى يصل إلى العين فتحوّله إلى صورة تتمّ عمليّة الرّؤية البصريّة . وليس بخافٍ أنّ موسى عليه السّلام سأل ربّه أن يمكّنه من رؤيته جلّ وعلا ، وليس بخافٍ كذلك أنّ محمّد ابن عبد الله ﷺ خاتم النّبيّين وأشرف المرسلين حينما أسرى به جلّ وعلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى جاء فى حقّه بشأن الإسراء الفعل المتعلّق بالإراءة متعدّيًا . قال تعالى[1] : ﴿ سبحان الّذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الّذى باركنا حوله لنريه من آياتنا إنّه هو السّميع البصير ﴾ فكأنّ الفعل هنا إراءة . وما هي الإراءة ؟ الإراء هي أن تجعل من لا يرى يرى وذلك إمّا بتحويل المرئيّ إلى قانون الرّائي أو بنقل الرّائى لأن ينفذ إلى قانون المرئيّ . إنّ ضعيف البصر مثلاً يرى بالنّظارة ما لم يكن يراه من ذى قبل فالنّظارة تريه بإرادة الله تعالى الأشياء . فإذا عمل عمليّةً جراحيّة واستغنى عن النّظّارة قيل رأى هو[2] وبشأن المعراج جاء فى حقّ المصطفى ﷺ قول الحقّ جلّ وعلا فى سورة النّجم[3] : ﴿ لقد رأى من آيات ربّه الكبرى ﴾ « فكأنّ الرّسول فى بشريّته فى الأرض كان محتاجًا إلى أن يعدّل القانون فى ذاته بالنّسبة للرّائى والمرئيّ . وأمّا فى السّماء فقد أخذ وضعًا آخر . هذا الوضع الآخر أصبح بذاته يرى ، لأنّه أصبحت هناك ملكيّة .

---

(١) سورة الإسراء ١ .

(٢) انظر هنا الإسراء والمعراج للشّيخ محمّد متولّى الشعراوي ٦٧ وتأمّلات فى سورة الإسراء للمؤلّف ٢٥ - ٢٧ .

(٣) الآية ١٨ .

فالبشريّة طرحت فى الأرض ، والملائكيّة أصبحت هي المسيطرة على رسول الله فأصبح يرى »[١] .

وبشأن القول : ﴿ ربّ أرني أنظر إليك ﴾ نحن بحاجةٍ إلى الوقوف عند النّظر وعند البصر . بشأن النّظر بمعنى تقليب البصر هنا يقال : نظرتُ إلى كذا إذا مددتَ طرفك إليه ، رأيتَه أو لم تره ، ونظرت فيه إذا رأيتَه وتدبّرته[٢] واللّطيف فى الأمر أنّ الدّليلين على معنى القول : نظرت إلى كذا موجودان فى الآية الكريمة . بشأن الرّؤية الممكنة جاء القول : ﴿ ولكن انظر إلى الجبل ﴾ وبشأن الرّؤية الّتي فيها قولان جاء القول : ﴿ قال ربّ أرنى أنظر إليك ﴾ ومن الأدلّة على النّظر فى الشّيء إذا تأمّلتَه قول الحقّ جلّ وعلا[٣] : ﴿ فنظر نظرةً فى النّجوم . فقال إنّى سقيم ﴾ وقول الحقّ جلّ وعلا[٤] : ﴿ أو لم ينظروا فى ملكوت السّماوات والأرض ﴾ فذلك حثٌّ على تأمّل حكمته فى خلقها[٥] .

وإنّ القول : ﴿ ربّ أرنى أنظر إليك ﴾ يذكّرنا بقول الحقّ جلّ وعلا فى هذه السّورة الكريمة[٦] : ﴿ والّذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون . وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعوا وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون﴾ إنّ « البصر يقال للجارحة النّاظرة نحو قوله تعالى : ﴿ كلمح البصر ﴾ . ﴿ وإذ زاغت الأبصار ﴾ . وللقوّة الّتى فيها . ويقال لقوّة القلب المدركة بصيرة وبصر »[٧] إنّ الأصنام الّتى يدعوها المشركون من دون الله تعالى أو مع الله تعالى والّتى صنعها الإنسان على هيئة المخلوق لها شكل المخلوق وجوارحه ومنها العينان. إنّ من ينظر إلى تلك الأصنام يتبيّن أنّها لها شكل من ينظر إليه من المخلوقات ولكنّها لا تبصر لأنّها جمادات لها شكل المخلوق ولها عيناه اللّتان يبدو فى الظّاهر أنّها تنظر

---

(١) الإسراء والمعراج ٦٨ . (٢) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « نظر » ٤٩٧ .
(٣) سورة الصّافات ٨٨ و٨٩ . (٤) سور الأعراف ١٨٥ .
(٥) مفردات الرّاغب الأصفهاني : « نظر » ٤٩٨ .
(٦) سورة الأعراف ١٩٧ و١٩٨ . (٧) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « بصر » ٤٩ .

بها وتبصر بها والحقيقة أنّها تقف عند النّظر شكلاً ولا تستطيع أن تتجاوزه إلى جوهر البصر أو الإبصار .

فإذا عدنا إلى القول على لسان موسى عليه السّلام : ﴿ ربّ أرنى أنظر إليك ﴾ تبيّنّا أنّ موسى عليه السّلام الّذى اصطفاه الله تعالى بالكلام ، والّذى أغراه فضل الله تعالى عليه بخصوصيّة الكلام بطلب المزيد من فضل الله تعالى بأن يمكّنه جلّ وعلا من رؤيته فى الدّنيا ، تبيّنّا أنّ موسى عليه السّلام هو عبد الله تعالى المصطفى المفطور على الخلق العظيم المدرك لحقيقة قدر نفسه وعجزه وقلّة حيلته الموقن بأنّ كلّ ما ينعم الله تعالى به عليه من نعم هو تأكيدٌ لكونه عبدًا لله تعالى : ﴿ اجتباه وهداه إلى صراطٍ مستقيم ﴾[1] إنّ موسى عليه السّلام تجىء على لسانه الصّيغة الّتى تحتمل إمكانيّة الرّؤية وعدمها : ﴿ ربّ أرنى أنظر إليك ﴾ ويتأكّد هذا العلم من عبد الله تعالى موسى عليه السّلام لحقيقة قدره حينما نشير إلى معنى هذا القول : ﴿ قال ربّ أرنى أنظر إليك ﴾ إنّ المعنى : يا ربّ أرنى نفسك أنظر إليك . إنّ منتهى ما يستطيع موسى عليه السّلام فعله هو أن ينظر . وليس من الضّرورى أن يترتّب على النّظر رؤية أو بصر . وإنّ موسى عليه السّلام يعلم أنّه لن يستطيع أن يرى الله تعالى فى الدّنيا إلاّ إذا شاء الله تعالى له ذلك . وقد عرفنا من آية الإسراء بالمصطفى ﷺ الّتى جاء فيها قول الحقّ جلّ وعلا[2] : ﴿ لنريه من آياتنا ﴾ وآية المعراج الّتى جاء فيها قول الحقّ جلّ وعلا[3] : ﴿ لقد رأى من آيات ربّه الكبرى ﴾ أنّ المصطفى ﷺ بشأن آية الإسراء الأرضيّة كان بحاجةٍ إلى جعله قادرًا على أن يرى آيات ربّه جلّ وعلا ومن هنا جاء الفعل متعدّيًا : ﴿ لنريه ﴾ وأنّ المصطفى ﷺ بشأن آية المعراج السّماويّة كان بفضل الله تعالى قادرًا على أن يرى بذاته لأنّ بشريّته عليه الصّلاة والسّلام قد طُرحت فى الأرض وأصبحت الملائكيّة هي المسيطرة عليه آنذاك فى السّماوات العلا ، ومن هنا جاء الفعل لازمًا : ﴿ لقد رأى ﴾ .

---

(١) سورة النّحل ١٢١ . (٢) سورة الإسراء ١ . (٣) سورة النّجم ١٨ .

وبشأن موسى عليه السّلام لم يشأ الله تعالى أن يراه جلّ وعلا موسى عليه السّلام في الحياة الدّنيا . وإنّ الخلق العظيم الّذى فطره الله تعالى عليه والأدب الجمّ الّذى حلاّه به إذا كنّا تبيّناه فى القول : ﴿ أنظرْ إليك ﴾ وقد عرفنا أنّ الرّؤية ليست مرتّبةً على النّظر حتمًا فإنّا نتبيّن هذه الصّفات الحميدة فى القول قبل ذلك : ﴿ قال ربّ أرنى .... ﴾ وقد عرفنا أنّ المعنى : يا ربّ أرنى نفسك أنظر إليك . إنّ موسى يقدّم فى كلامه ما يتعلّق بالذّات العليّة وببارئه الّذى لا يُسْأل عمّا يفعل وهم يُسْألون . إنّ موسى عليه السّلام قد شجّعه فضل الله تعالى عليه بتكليمه إيّاه على أن يسأل المزيد من الفضل فى هيئة الرّؤية . وإنّ موسى عليه السّلام يعلم أنّ ذلك لا يتمّ إلاّ إذا أراده الله تعالى ولهذا تقدّم القول : ﴿ ربّ أرنى ﴾ وتأخّر القول الّذى يخصّ المخلوق : ﴿ أنظر إليك ﴾ إنّ موسى عليه السّلام لا يملك سوى أن ينظر . وحينما لم يشأ الله تعالى لموسى عليه السّلام أن يراه جلّ وعلا فى هذه الحياة الدّنيا جاء قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿ قال لن تراني ﴾ .

ويلاحظ أنّه لا يجيء القول : لن أُرَى . كي يُفْهَمَ بأنّه جلّ وعلا لن يُرَى على الإطلاق فى الأولى والآخرة ولكنّ الّذى جاء هو القول : ﴿ لن ترانى ﴾ والمعنى : يا موسى إنّك لن ترانى فى هذه الحياة الدّنيا مطلقًا . والمعروف أنّ لن هنا تفيد التّأبيد . ومعروفٌ مذهب أهل السّنّة والجماعة فى رؤية الله تعالى وأنّها غير ممكنةٍ فى الأولى ممكنةٌ فى الآخرة . جاء بشأن الآية الكريمة الثّالثة بعد المائة من سورة الأنعام : ﴿ لا تدركه الأبصارُ وهو يدرك الأبصارَ وهو اللّطيف الخبير ﴾ فى تفسير ابن كثير[1] رحمه الله تعالى رحمةً واسعةً القول : « وقوله لا تدركه الأبصار ، فيه أقوالٌ للأئمّة من السّلف ، أحدها : لا تدركه فى الدّنيا وإن كانت تراه فى الآخرة كما تواترت به الأخبار عن رسول الله ﷺ من غير ما طريقٍ ثابتٍ فى الصّحاح والمسانيد والسّنن كما قال مسروق عن عائشة أنّها قالت : من زعم أنّ محمّدًا أبصر

---

(١) ٢ / ١٦١ وانظر دراستنا للآية الكريمة في كتابنا : تأمّلات فى سورة الأنعام .

ربّه فقد كذب ، وفى رواية : على الله ، فإنّ الله تعالى قال : لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار . رواه ابن أبى حاتم من حديث أبى بكر بن عيّاش عن عاصم ابن أبى النّجود عن أبى الضّحى عن مسروق . ورواه غير واحدٍ عن مسروق . وثبت فى الصّحيح وغيره عن عائشة من غير وجه » وهذا هو مذهب أهل السّنّة والجماعة بناءً على ما دلّ عليه كتاب الله تعالى وسنّة رسوله ﷺ « أمّا الكتاب فقوله تعالى : ﴿ وجوهٌ يومئذٍ ناضرة . إلى ربّها ناظرة ﴾ . وقال تعالى عن الكافرين: ﴿كلاّ إنّهم عن ربّهم يومئذٍ لمحجوبون ﴾ . قال الإمام الشّافعيّ : فدلّ هذا على أنّ المؤمنين لا يحجبون عنه تبارك وتعالى . وأمّا السّنّة فقد تواترت الأخبار عن أبى سعيدٍ وأبى هريرة وأنس وجريج وصهيب وبلال وغير واحدٍ من الصّحابة عن النّبيّ ﷺ أنّ المؤمنين يرون الله فى الدّار الآخرة فى العَرَصات وفى روضات الجنّات . جعلنا الله تعالى منهم بمنّه وكرمه آمين »[1] .

وإنّ ربّ العزّة الّذى أكرم موسى عليه السّلام بالكلام الّذى لم يكرم به جلّ وعلا أحدًا من النّبيّين سواه ولأجل هذا الإكرام الفريد كان منه عليه السّلام الطّلب الفريد بأن يرى من الكريم جلّ وعلا وجهه الكريم ، إنّ ربّ العزّة بعد أن يبيّن لموسى عليه السّلام بأنّه لن يراه جلّ وعلا فى الحياة الدّنيا ليسلّى موسى عليه السّلام ويعزّيه ويبيّن له عليه السّلام الحكمة من ذلك عن طريق التّجربة الحسّيّة الّتى لا يستقرّ معها الجبل الأكثر قوّة والأشدّ ضخامةً من جنس الإنسان . إنّ ربّ العزّة يأمر موسى عليه السّلام بأن ينظر إلى الجبل ، وانظر إلى هذا التّعبير : ﴿ انظر إلى الجبل ﴾ الّذى يقترن به إمكان الرّؤية بعكس التّعبير السّابق : ﴿ ربّ أرنى أنظر إليك ﴾ فإن استقرّ الجبل وثبت مكانه بعد تجلّى الرّبّ جلّ وعلا للجبل فإنّ ذلك مظنّة استقرار موسى عليه السّلام وثباته إذا تجلّى له ربّه جلّ وعلا كي يراه عزّ وجلّ ، وإن لم يستقرّ الجبل و لم يثبت فذلك معناه أنّ موسى عليه السّلام لن يستقرّ

---

(١) تفسير ابن كثير ٢ / ١٦١ .

ولن يثبت بطريق الأَحْرَى والأَوْلَى . فلمّا تجلّى ربّ موسى عليه السّلام ربّ العالمين للجبل وظهر من نوره قدر نصف أنملة الخنصر كما فى حديثٍ صحّحه الحاكم[١] جعله ذلك القدر القليل من النّور دكًّا أي مستويًا بالأرض[٢] وخرّ موسى عليه السّلام صعقًا وسقط[٣] مغشيًّا عليه[٤] لهول ما رأى ممّا حلّ بالجبل الأشدّ قوّةً وضخامةً من موسى عليه السّلام . وبهذا تجلّت لموسى عليه السّلام حكمة البرّ الرّحيم من القول لموسى عليه السّلام : ﴿ لن ترانى ﴾ .

فلمّا أفاق موسى عليه السّلام من غشيته وثاب إليه فهمه[٥] قال عليه السّلام معتذرًا لبارئه جلّ وعلا : ﴿ سبحانك ﴾ وتنزيهًا لك من أن يراك أحدٌ فى هذه الحياة الأولى إلاّ هلك ومن كلّ ما لا يليق بجلالك وعظمتك ﴿ إنّى تبت إليك ﴾ من قولي السّابق : ﴿ ربّ أرنى أنظر إليك ﴾ وأنا أوّل المؤمنين بأنّك لن تُرَى فى هذه الحياة الأولى سبحانك جلّ شأنك .

وإذا كان موسى عليه السّلام لم يُعْطَ الرّؤية فقد آتاه الله تعالى الكثير من فضله وإلى ذلك أشارت .

الآيــة رقــم (١٤٤)

قال تعالى : ﴿ قال يا موسى إنّى اصطفيتك على النّاس برسالاتى وبكلامى فخذ ما آتيتك وكن من الشّاكرين ﴾ .

إنّ ربّ العزّة يقول لكليمه موسى عليه السّلام يا موسى إنى اصطفيتك على النّاس ، واخترتك واجتبيتك من بين عالمى زمانك برسالاتى إلى بنى إسرائيل ، واصطفيتك واجتبيتك من بين سائر النّبيّين بتكليمى إيّاك بلا واسطة فخذ ما آتيتك

---

(١) الجلالين .
(٢) تفسير الطّبريّ ٩ / ٣٧ .
(٣) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « خرّ » ١٤٤ .
(٤) تفسير الطّبريّ ٩ / ٣٧ .
(٥) تفسير الطّبريّ ٩ / ٣٨ .

من نعمى وآلائى وعضّ عليها بالنّواجذ وكن من الشاكرين لى على هذه النّعم والآلاء . ومن بين هذه النّعم والآلاء التّوراة الّتى تحدّثت عنها .

الآيـــة رقـــم (١٤٥)

قال تعالى : ﴿ وكتبنا له فى الألواح من كلّ شيءٍ موعظةً وتفصيلاً لكلّ شيءٍ فخذها بقوّةٍ وأمر قومك يأخذوا بأحسنها . سأريكم دار الفاسقين ﴾ .

لقد كتب الله سبحانه وتعالى فى ألواح التّوراة الّتى نزلت كاملةً على موسى عليه السّلام : ﴿ من كلّ شيءٍ موعظةً ﴾ ترقّ لها القلوب وتخشع لها النّفوس : ﴿ وتفصيلاً لكلّ شيءٍ ﴾ فى مجال الحلال والحرام وسائر الأحكام . وإنّ ربّ العزّة ليأمر موسى عليه السّلام أن يأخذها بقوّة ، وأن يعمل بها بجدٍّ واجتهاد ، فإنّه عليه السّلام أحد أولى العزم من الرّسل وهم نوحٌ وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمّد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، وأن يأمر عليه السّلام قومه بنى إسرائيل بأن يأخذوا بأحسنها فى حال التّخيير فى حقّهم كالعفو والقصاص ، والصّبر والانتصار[1] إنّ العفو أحسن من القصاص ، وإنّ الصّبر أحسن من الانتصار .

ولمّا كان بنو إسرائيل بعد مغادرة مصر واتّجاههم مشرقين وبعد إنجاء الله تعالى لهم من الماء المِلْح وإغراق فرعون وملئه فى طريقهم إلى أرض الشّام الّتى بارك الله فيها من النّاحيتين الدّينيّة والدّنيويّة فمن الجائز أن يكون المراد بدار الفاسقين فى القول: ﴿ سأريكم دار الفاسقين ﴾ سأريكم يا بنى إسرائيل دار أولئك الفاسقين فى أرض الشّام الخارجين عن الصّراط المستقيم والمنحرفين عن الجادّة . والله تعالى أعلم. أمّا صفات الفاسقين فتتحدّث عنها .

---

(١) تفسير ابن عطيّة ٦/٧٥ . (٢) الآية ١٢٧ .

الآيـــة رقـــم (١٤٦)

قال تعالى : ﴿ سأصرف عن آياتي الّذين يتكبّرون فى الأرض بغير الحقّ وإن يروا كلّ آيةٍ لا يؤمنوا بها وإن يروا سبيل الرُّشْد لا يتّخذوه سبيلاً وإن يروا سبيل الغيّ يتّخذوه سبيلاً . ذلك بأنّهم كذّبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين ﴾ .

من البيّن أنّ الآية الكريمة تقرّر أنّ الله سبحانه وتعالى سوف يصرف عن آياته جلّ وعلا الّذين يتكبّرون فى الأرض بغير الحقّ ويتجبّرون ويبغون . وبذلك يأخذ القول : ﴿ سأصرف عن آياتي الّذين يتكبّرون فى الأرض بغير الحقّ ﴾ بسببٍ من مثل قوله عزّ من قائل فى سورة التّوبة[٢] : ﴿ وإذا ما أنزلت سورةٌ نظر بعضهم إلى بعضٍ هل يراكم من أحدٍ ثمّ انصرفوا . صرف الله قلوبهم بأنّهم قومٌ لا يفقهون ﴾ إنّ الّذين يتكبّرون فى الأرض بغير الحقّ ، لأنّ الكِبْر داءٌ وبيلٌ وشرٌّ مستطير ، بسبب انصرافهم عن آياته جلّ وعلا البيّنات ، سيزيد الله سبحانه وتعالى أولئك القوم إعراضًا وقلوبهم انصرافًا . وبشأن القول : ﴿ سأصرف ﴾ يلاحظ مجيء حرف السّين الّذي يدلّ على المستقبل القريب .

وبسبب داء الكِبْر الوبيل انصرفوا عن آيات الله تعالى فصرف الله سبحانه وتعالى قلوبهم وزادها عمًى إلى عماها حتّى إنّهم إن يَرَوْا سبيل الرّشد وطريق الهدى لا يتّخذوه سبيلاً ولا طريقًا ، وإن يَرَوْا سبيل الغيّ وطريق الضّلال يتّخذوه سبيلاً . وحينما نبحث عن أسّ البلاء بنصّ الآية الكريمة نتبيّن أنّه التّكذيب بآيات الله تعالى حينما جاءتهم . ومع أنّ آيات الله تعالى متتابعةٌ وموجودةٌ دائمًا فإنّهم كانوا عنها غافلين. وبشأن الغافل يستوى وجود الشّىء وعدمه .

وهكذا تعرض الآية الكريمة معانيها فى أسلوب القرآن الكريم الّذي يرضى كلّ عقل بفصوص حكمه ويشبع كلّ نفسٍ بعذوبة لفظه وحلو جرسه .